

قراءة في دفا تر بعض
الحسين

بمكلم
الدكتور محمد العيد الخطراوي



دار الفكر
للدراسات والنشر

قراءة في دفاتر بعض

الحميين

بالتكلم
الذكر محمد العيد المخطراوي

Readings in
THE NOTEBOOKS OF DONKEYS



دار الفتح للدراسات والنشر

2 0 0 9

□ قراءة في دفاتر بعض الحمير

تأليف: الدكتور محمد العيد الخطراوي

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©

قياس القطع: ٢٤×١٧

الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-١١٨-٧ ISBN:

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ٢٠٠٨/١١/٤٠٢٤



دار الفتح للدراسات والنشر

تلفاكس ٤٦٤٦١٩٩ (٠٠٩٦٢٦)

جوال ٠٥٨ ٠٣٨ ٧٩٩ (٠٠٩٦٢)

ص.ب ١٨٣٤٧٩ عمان ١١١١٨ الأردن

البريد الإلكتروني: info@alfathonline.com

الموقع على شبكة الإنترنت: www.alfathonline.com

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or trans-

mitted in any form or by any means without prior permission in writing the publisher.

المطبعة
غزة - فلسطين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتوى

٧	إهداء
٩	أنا، والحمار، وهواك
١٢	الحمارة وأنواع من الحمير
١٦	فوق ظهور الحمير
٢١	في وجه الحمير
٢٥	بقية هجاء للحمير
٣٠	طرائف حمارية
٣٤	أكاذيب حمارية
٣٨	حماريات شوقي
٤٣	مؤلفات في الحمير
٩٢	من أسماء الحمير
٩٧	أعلام حمارية
٩٩	من الأمثال الحمارية
١٥٣	لفظ الحمار في القرآن الكريم
١٥٨	لفظ الحمار في الحديث النبوي
١٧١	مقاطع قصيرة في الحمير
١٩١	حماريات
٢١١	السيرة الذاتية للمؤلف

إهداء

إلى كل من ابتلي بمعاشرة الحمير، وضاع صوته وحُشِرَ بين أصواتها المنكرة،
فكاد أن يكونها ولماً...! واكتشف آخر الرحلة، أن الحياة دون حمير لا تطيب، فذهب يردد
قول الشاعر:

فالعش حماراً تعش سعيداً فالسعدُ في طالع البهائم

وفوّض أمره إلى الله العليّ القدير، فهو وحده الذي ييسر العسير، ويحسن المصير.
وما ند عن لساني أو خطه قلّمي هنا أو هناك، وفي صفحات هذا الكتاب بالذات،
لا يزيد على كونه آهاتٍ للتنفيس والتخفيف من آلام التعشير وأحلام التشوير.

إنّي إذا ما حدثُ أَلَمًا أقولُ: يا للهِمَّ، يا للهِمّا

وأسأل الله أن يهدّي روعتي، ويؤمّنني من خوفي، فهو وحده أمان الخائفين..

محمد العيد الخطراوي

أنا، والحمار، وهواك

منذ أن أسقطني الحمار من فوق ظهره، وأنا في السابعة عشرة، وترك آثاره آلاماً
مُبرِّحةً في ظهري، ما زلتُ أعاني منها إلى اليوم، ومنذ قرأت وأنا في العشرين قول
القاضي الجرجاني:

وعش حماراً تعش سعيداً فالسعدُ في طالع البهائم

منذ ذينك الحنين وشبح الحمار يطاردني، والرغبة في الانتقام منه تُقْض مضجعي،
وتشوك مقامي ومتكلمي، ولذا سُررت جداً حينما حرّموا الحمير من جرّ العربات، ومنعوا
الناس من ركوبها واستعمالها للنقل في داخل المدن لأسبابهم الخاصة، التي أثلجت
صدري، وحفظت عيني من القذى الذي كان يصيبها من مرأى الحمير، وأعصابي من
التشنج الذي كان يطرأ عليها من جرّاء الشهيق والنهيق.

ولئن حمدتُ لهم هذا الإجراء العادل، فإنني تمنيت أن لو شَمَلت إجراءاتهم
المئات من الأهرة الأخرى التي تضايقنا صباح مساءً، وتقنعنا بتصرفاتها أنها أشدُّ بلاءً
من الحمُر الأصلية، وأكثر نعاقاً ونهاقاً، وعذراً لكل الحمير الفائقين، والمفوّقين.

ورغم أن الله تبارك وتعالى قرّنَ بينها وبين الخيل والبغال، وامتنَّ علينا بخلقها،
وبأنها للركوب والزينة ونقل الأحمال، فهي من نعم الله على الإنسان، التي يجب أن
يقابلها بالحمد والشكر، فإننا جميعاً لا نذكر اسم الحمير إلا ونردِّفه بقولنا: (أكرمك الله)
وما أشبه ذلك من العبارات التي تعبر عن الاستحياء، ولا نفعل ذلك مع الخيل مثلاً،
فهل المسؤول عن هذه التفرقة بين البهائم الناس المنعم عليهم؟ أم المسؤول عن ذلك

سلوكيات الحمير؟! كيفما كان الأمر، فإنني أفترض أن جهوداً كبيرة بُذلت لغرس الكره في قلوب الناس للحمير، مما سبّب هذا الانفصال بيننا وبينهم، وأدى إلى اتخاذ القرار بإبعادهم عن مواطن أقدامنا، وحتى ساحات ألعابنا، لا أقول هذا دفاعاً عن الحمير، كما أنني لا أكتب الآن منافحةً (عنهم)، أو دعوة إلى الرفقة بها، فإنني مثوور منها موتور، ولكن أفعل ذلك وأقوله طمعاً في تحقيق شيء من العدالة الاجتماعية، ومطالبةً بعدم تصدير الحمير الإنسية، والتمكين لها بين الناس.

* وللحمار وعائلته مجموعة من الأسماء، منها: الحمار والعَيْر، والجحش، والتولب، والأتان، واليحمور، والفنان، والفرا، وغيرها.

* أما الحمار فهو: العَيْر، أهلياً كان أم وحشياً، والأنثى: حمارة، والجمع: أحمر، وُحْمُر، وحمير، وُحْمُور، وُحْمُر. (قلت: لعله ليس جمعاً أصيلاً في هذا الباب، وإنما هو داخل في عموم أن الاسم المفرد أو الجمع الآتي على وزن (فُعْل) يجوز تسكين عينه: كعُمُر وُحْمُر، فيقال: عمر، وُحْمُر، بتسكين الميم فيهما. أما حُمُرَات فهي جمع الجمع، هي جمع لحُمُر - بضم الميم - كجزُر وجُزُرَات، وطُرُق، وطُرُقَات).

ومن أسماء الحمار أيضاً: العِلْج، وجمعه: العلوج، وأعلاج، ويطلق بصفة أخصّ على الحمار الوحشي السمين، فإذا اتصف الحمار بالضخامة، صحَّ أن نسميه (الجأب).

ويقال لصاحب الحمار: حامر، أو حمّار، والجمع: حمّارة، وذلك كخيّال وخيّالة، وجمال وجمّالة، وبغّال، وبغّالة، وربما قيل أيضاً في الجمع: حامرة.

والحمّارة من الخيل، هي: التي تعدو عدّو الحمير، أو أنها المهجينة، منها: التي ساء خلقها أو خلقتها، وربما كانت هي: البرذون. فلقد قال في «اللسان»: البرذون من الخيل: ما كان من غير نتاج العراب، والأنثى: برذونة، والجمع: براذين، وهو بطيء في عدوه، قال الشاعر:

رَأَيْتُكَ إِذْ جَالَتْ بِكَ الْخَيْلُ جَوْلَةً وَأَنْتَ عَلَى بَرْدَوْنَةٍ غَيْرَ طَائِلٍ

وفي حديث شريح: أنه كان يردّ الحمارة من الخيل، أي: لا يلحقهم بأصحاب الخيل في السهام من الغنيمة، فلا يعطيهم سهمين، بل سهماً واحداً.

قالوا: والفرس المَحْمَرُّ: الفرس اللثيم، الذي يشبه الحمار في جريه، من بطئه، والجمع: المحامر، والمحامير. وكل فرس هجين هو: مُحْمَرٌ. وتُسمى الحرّة: مقيّدة الحمار؛ لأن حجارتها تقيد الحمار الوحشي، وتَعُوْقُهُ عن الجري، فيدركه الصائدون، فكأنها قيدٌ له. وبنو مقيّدة الحمار: هي العقارب، قالوا: لأنها أكثر ما تكون في الحرار، أنشد ثعلب:

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ عَلَى أَبِيٍّ رِمَاحَ بَنِي مَقِيْدَةِ الْحِمَارِ
ولكنني خَشِيتُ عَلَى أَبِيٍّ رِمَاحَ الْجَنِّ، أَوْ إِيَّاكَ حَارِ

حار: ربما كان ترخيماً لحارثة، فأصلها: يا حارثة، خُفِّفَ ترخيماً بعد أن حذف منه أداة النداء، يقول ابن مالك:

ترخيماً احذف آخر المنادى كيا سُعا، فيمن دَعَا سُعاداً



الحمار وأنواع من الحمير

تتمة لحديثنا الماضي عن الحمار وأنشاه نقول:

وللحمار معانٍ أخرى غير دلالتها على أنثى الحمار، وتُجمعُ على حمائر، منها: خشبةٌ تكون في الهودج.

ومنها: الدلالة على ثلاثة أعواد من الجريد، تشدّ أطرافها العلوية إلى بعضها، ويخالفُ بين أرجلها، تعلّق عليها الإداوة أو القربة، ليبرد الماء.

ومنها: الدلالة على حجارةٍ عِراض تنصب حول الحوض، لتردّ الماء إذا طغى، كما تنصب حول بيت الصائد، قال حميدُ الأرقط مشيراً إلى بيت صائد:

أعدّ للبيت الذي يسامرُهُ بيتَ حُتوفٍ أُرِدحت حمائرُهُ

(أُرِدحت حمائرُهُ: بُنيت حجارته العراض).

ومنها: الدلالة على ثلاث خشبات، يوثقن، ويُجعل عليهن الرطب؛ لئلا يقرضه الحرقوص (دويبة قدر البرغوت).

وتصغير الحمار: حُمير، ومنه توبةُ بن الحُمير، صاحب ليل الأخيلى، وكنية الحمار: أبو صابر، وأبو نافع، وأبو زياد، ولذلك قيل في الهجاء:

زيادُ لست أدري من أبوه ولكنَّ الحمارَ أبو زيادٍ

وكنية الحمار: أم محمود، وأم تولب، وأم جحش، وأم نافع، وأم وهبة، وأم

الهنبر.

والحمير ثلاثة أنواع: أهلي، ووحشي وإنسي.

وسياتي الكلام عن كل نوع في موضعه إن شاء الله، رغم الشابك بين الأنواع الثلاثة، وتداخل الأوصاف والشيآت، وأخطرها جميعاً: الحمار الإنسي.

فأما الأهلي؛ فنوعان أيضاً: نوع يصلح لحمل الأثقال، ونوع لئن الأعطاف، سريع العدو، يسبق براذين الخيل. فهي على هذا وسيلة نقل وركوب وزينة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْإِبَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

وأجود الحمير: المصرية، ويُسْتَهَرُّ في الجزيرة العربية الحمارُ الحساوي، (وينطقها بعضهم بالصاد)، والحمار الشهري.

ويهتم أهل مصر بتربية الحمير، ويحتفلون بأمرها، ويقيمون لها السباقات الخاصة بها كالخيل، غير أن مكان سباقها لا يسمى مضماراً، وإنما يسمى (الطابق)، ويتكلفون في تزيينها، ويغالون في أسعارها.

قال النويري في «نهاية الأرب»^(١): والجيد منها يباع بالثمن الكثير، فقد بيع منها كما ذكر صاحب كتاب (مباهج الفكر ومناهج العبر) حمارٌ بمائة دينار وعشرة دنانير. [قلت: الدينار كان يقابل المثلقال، وهو في نقود عبد الملك بن مروان (٢٥، ٤ جرام)، فإذا ضربت ١٠ × ٢٥، ٤ كانت النتيجة؛ أن ثمن الحمار (٥٠، ٦٧، ٤ جرام من الذهب)، فإذا أخذت متوسط سعر الجرام الواحد من الذهب، (الجرام: كلمة عربية تعني نواة التمر، اتخذوا منها وسيلة للوزن، وهو خمسة وأربعون ريالاً، يكون سعر الحمار الواحد (٥، ٦٧، ٤ × ٥ = ٣٣٧، ٢١ ريالاً)].

قال النويري: وأما الذي رأيناه نحن منها، فبيعَ بألف درهم، [قلت: الدرهم

(١) نهاية الأرب (١٠: ٩٣).

المرواني يساوي: (٢, ٩٧ جرام فضة)، فإذا ضربت (١٠٠٠ × ٩٧, ٢) كانت النتيجة (٢٩٧٠ جراماً) من الفضة، هو ثمن الحمار، يضرب في متوسط سعر الجرام (٢٩٧٠ × ١٠ = ٢٩٧٠٠ ريال).]

وكثير من أهل مصر والحجاز كان يركبها، وقد أدركنا ذلك في مكة والمدينة، فقد كان اعتماد الركب في المناسبات المختلفة وبخاصة في الرجبية على الحمر، وكذلك في الانتقال بين البساتين (البلدان).

وفي الحالات العادية؛ كان بعض الأعيان يركبونها، مع وجود القدرة على ركوب الخيل والبغال، بقصد كسر غلواء الكبرياء في نفوسهم، وبغية التواضع، وبعضهم يركبها شُحاً وبخلاً، ويركبها الشباب بقصد التنزه عليها، وذلك لفراحتها وسعة عدوها، بعد أن يزينوها بالقلائد والدناديش، كما كان يُفعل في الأعياد بالحجاز.

وكان الشيخ عبد العزيز البشري أحد مشايخ الأزهر بمصر، وكان رجلاً فكهاً معروفاً بالنكتة وخفة الدم، وسرعة البديهة، كانت له حمارةٌ ينتقل بها من بيته إلى الأزهر، كما يفعل غيره.

وكما توجد الآن مواقف للسيارات، كانت توجد آنذاك مواقف للحمير، وذات مرة حضر الشيخ بدون الحمارة على غير عادته، فسأله أحدهم تنذراً: وأين الحمارة يا مولانا؟ قال الشيخ: إنها في حالة نفاس. قال آخر: لا تنسوا يا مولانا أن تدعونا إلى سابعها. قال الشيخ: آسف! سيكون السابع قاصراً على حمير الحي فقط!

قال في «ثمار القلوب»^(١): (حمير مصر موصوفةٌ بحسن المنظر، وكريم المخبر، وكذلك أفراسها، إلا أن بعض البلاد يشارك مصر في عتق الأفراس وكرمها. وتختص مصر بالحمير التي لا تُخرج البلدان أمثالها، وكان الخلفاء لا يركبون إلا حمير مصر في دورهم

(١) ثمار القلوب (ص ٥٣١).

وبساتينهم؛ وكان المتوكل يصعد منارة (سُرَّمَن رَأَى) على حمار مريسي ودرج تلك المنارة من الخارج، وأساسها على جريبٍ من الأرض، وطولها: تسعةٌ وتسعون ذراعاً. ومريس: قرية بمصر، إليها ينسب بشر المريسي).

ومرة أخرى خلع الشيخ البشري قفطانه يتوضأ، فرسم عليه أحدهم متعبثاً منكثاً: رأس حمارٍ بالطباشير، ليستثير في الشيخ ردة الفعل، فلما شاهد ذلك البشري، قال: من الذي مسح وجهه في القفطان يا أولاد! فضحك الجميع.

ومن هذا الباب ما يُروى عن الشاعر حافظ إبراهيم، قالوا: كان يلقي إحدى قصائده في إحدى المناسبات، والنوافذ مفتوحة، وكان قريباً من تلك الصالة موقفٌ للحمير، وفي أحد مقاطع القصيدة نهق أحدها بصوت عالٍ غطّى على الشاعر، فما كان من حافظ إلا أن توقف عن الإلقاء قائلاً: ننظر حتى ينهي أخونا قصيدته. فضحك الناس، ثم والى إلقاءه.

وعلا جحاً نشراً يخطب في الناس، سألهم: أفاهمون أنتم؟ قالوا: لا! قال: أنا لا أفهم الحمير. وفعل ذلك مرة أخرى، وسأل، فردوا عليه بأنهم فاهمون، قال: أنا لا أفهم الفاهمين. ومرة ثالثة؛ جاوبوه بأن بعضهم فاهم، وبعضهم غير فاهم، قال: فليفهم الفاهمون غير الفاهمين.

ويُوصَفُ الحمار بحدة حاسة السمع، ويُرجع بعضهم ذلك إلى هيئة أذنيه، وقدرة اجتذابها للصوت، ومرونتها في التوجه بهما يمنة ويسرة، وفي كل اتجاه، ولعل فكرة الهوائي؛ لها علاقةٌ بأذن الحمير. وللطبيعة علاقةٌ بأذن الحمار، إذ هناك عشبٌ يحمل اسم (أذن الحمار)، قال عنه (المعجم الوسيط): (هو عشبٌ ينمو في جنوب أوروبا؛ كثير الشوك، وأزهاره صفراء ناحلة، وجذوره تحوي مادة حمراء).

فوق ظهور الحمير

عرفنا فيما سبق أن الحمير - من شدة خوفها من الأسد - يزداد ارتباكها واضطرابها، بحيث ترمي نفسها على الأسد فيما تحسب أنها تفر منه. واستثمر هذه الصفة أبو تمام في هجائه، فقال في سبِّ الشاعر عبد الصمد بن المعذل، وقد بدأه بالهجاء:

أقدمتَ ويلك من هجوي على خطرٍ والعيرَ يَقدُّم من خوفٍ على الأسدِ

ومن صفات الحمار أيضاً: أن البرد يؤذيه ويضر بجسمه، ولذا لا يوجد في المناطق الباردة؛ كشمال أوروبا، وإذا كان البرد يؤذيه، فإنَّ نهيته يؤذي الكلاب وتحافه، وقد يسبب لها مغصاً في بطنها. ولم أرَ لذلك مقنعاً، قالوا: ولذلك يطول نباحه.

ويوصف أيضاً بالهداية إلى سلوك الطرقات التي مشى فيها، ولو مرةً واحدةً، دون إرشادٍ راكمه.

وللناس في مدح الحمار وذمه أقوالٌ متباينةٌ بحسب صلتهم به. فمن ذلك: أن خالد بن صفوان^(١)، والفضل بن عيسى الرقاشي^(٢)، كانا يختاران ركوب الحمير على ركوب البراذين، فأما خالد؛ فإن بعض الأشراف بالبصرة تلقّاه، فرآه على حمار، فقال له: ما هذا المركبُ يا أبا صفوان؟ فقال: عَيرٌ من نسل الكداد، أَصْحَرُ السربال، مفتول

(١) خالد بن صفوان المنقري: أحد الفصحاء والخطباء المشاهير، أخباره كثيرة، وله كلمات سائرة، توفي نحو عام (١٣٣هـ). معجم الأدباء (١١: ٢٤).

(٢) الرقاشي: هو واعظ، خطيب، متكلم، قاص، رئيس طائفة من المعتزلة، توفي سنة (٢٠٠هـ).

الأجلاد، محملج القوائم، يحمل الرَّجْلة، ويبلغ العقبة، ويقُلُّ داؤه، ويخفّ دواؤه، ويمنعني أن أكون جباراً في الأرض، أو أكون من المفسدين، ولولا ما في الحمار من المنفعة لما امتطى أبو سيّارة ظهر عير أربعين سنة (أبو سيّارة: رجلٌ من عدّوان. أصحر: أُشرب لونه حمرة خفيفة، الأجلاد: جمع جلد، معروف، محملج: من قولهم: حملج الحبل، إذا قتله قتلاً شديداً. الرَّجْلة: المرأة).

وأما الرقاشي، فإنه سُئِلَ أيضاً عن ركوب الحمار، فقال: إنه أقل الدواب مؤونةً، وأكثرها معونةً، وأسهلها جماحاً، وأسلمها صريعاً (قلت: هذا غير مسلّم، فإنني ما زلت أعاني من صرخته منذ كنت في السابعة عشرة من عمري)، وأخفضها مهوىً، وأقربها مرتقىً، يزهي ركبته وقد تواضع بركوبه، ويسمى مقتصدًا، وقد أسرف في ثمنه، ولو شاء أبو سيّارة أن يركب جملاً مَهْرِيّاً، أو فرساً عربياً، لفعل، ولكنه امتطى عيراً أربعين سنةً.

قال الميداني^(١): فسمع أعرابي كلام الرقاشي فعارضه (قلت: ما قاله الأعرابي ليس معارضة ونسجاً على منوال الرقاشي، وإنما هو من باب المناقضة)، فقال: الحمار شَنَارٌ، والعَيْرُ عارٌ، هو منكُرُ الصوت، بعيدُ الفَوْتِ، متغرّقٌ في الوحل، متلوّثٌ في الضحل، ليس بركوبة فحل، ولا مطيّة رَحْل، إن وقفته أدلى، وإن تركته ولى، كثير الروث، قليل الغوث، سريع إلى الفرارة، بطيء في الغارة، لا تُرقأ به الدماء، ولا تُمهر به النساء، ولا يُحلبُ في إناء.

وقال أبو عبد الله محمد بن القاسم، المعروف بأبي العيّن، لبعض سماسرة الحمير: اشتر لي حماراً، لا بالطويل اللاحق، ولا بالقصير اللاصق، إن خلا الطريق تدفّقه، وإن كثر الزحام ترفّقه، لا يصادم بي السّواري، ولا يدخل تحت البواري، إن كثرت علفه

(١) في مجمع الأمثال (١: ٤١١)، ط ٢، دار السعادة، مصر، ١٣٧٩ هـ.

شَكَرَ، وَإِنْ قَلَّلْتُهُ صَبَرَ، وَإِنْ رَكِبْتُهُ هَامَ، وَإِنْ رَكِبَهُ غَيْرِي قَامَ. فَقَالَ لَهُ السَّمْسَارُ: إِنْ مَسَخَ اللَّهُ (بَعْضَهُمْ) حِمَاراً أَصَبْتَ حَاجَتَكَ، وَإِلَّا فَلَيْسَتْ مَوْجُودَةً.

ومما جاء في مدح الحمير، قول أحمد بن طاهر يصف حماراً:

شَيْءٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ فِيهَا أَشْرَقَتْ	وَأَضَاءَ فِيهَا الْبَدْرُ عِنْدَ تَمَامِهِ
وَكَأَنَّهُ مِنْ تَحْتِ رَاكِبِهِ إِذَا	مَا لَاحَ بَرْقٌ لَاحَ تَحْتَ غَمَامِهِ
ظَهَرَ كَجَرِي الْمَاءِ لَيْنُ رُكُوبِهِ	فِي حَالَتِي إِتْعَابِهِ وَجَمَامِهِ
سَفِهَتْ يَدَاهُ عَلَى الثَّرَى، فَتَلَاعَبَتْ	فِي جَرِيهِ بِسَهُولِهِ وَأَكَامِهِ
عَنْ حَافِرٍ كَالصَّخْرِ، إِلَّا أَنَّهُ	أَقْوَى وَأَصْلَبُ مِنْهُ فِي اسْتِحْكَامِهِ
مَا الْخَيْزُرَانُ إِذَا انْتَشَتْ أَعْطَافُهُ	فِي لَيْنٍ مَغْطِفِهِ، وَلَيْنٍ عِظَامِهِ
عَنْقٌ يَطُولُ بِهَا فُضُولُ عِنَانِهِ	وَمَحْزَمٌ يَغْتَالُ فَضْلَ حِزَامِهِ
وَكَأَنَّهُ بِالرِّيحِ مَتَعَلٌّ، وَمَا	جَرِيُّ الرِّيحِ كَجَرِيهِ وَدَوَامِهِ
أَخَذَ الْمَحَاسِنَ أَمْنًا مِنْ عِيهِ	وَحَوَى الْكَمَالَ مَبْرَأً مِنْ ذَامِهِ

(الشَّيْءُ: العلامة، واللون. الجِهام: الراحة. الأكام: المرتفعات. الذام: العيب).

فهو حمارٌ جميل اللون مشرقة، تستريح له النفس، لين المركب، مع قوة وصلابة تبعثان على الشعور بالأمان، مرن العظام، ذو عنق طويلة تدل على أصالته في الحميرة، سريعٌ جداً، حتى كأنه يلبس الريح في حوافره، حاز كل صفات الكمال، وخلا عن جميع العيوب.

وقال آخر:

لا تنظرنَّ إلى هُزال حماري وانظرنَّ إلى مجراه في الأخطارِ

متوقِّدٌ جعل الذكاء إمامه فكأنما هو شعلةٌ من نارٍ
عادت عليه الريحُ عند هبوبها فكأنه ريحُ الدُّبور يباري

(الأخطار: جمع خطر، والمقصود هنا: ما يُتَراهُنُ عليه. وهذا دليلٌ على أنهم كانوا يتسابقون عليها، مقامرةً ورهاناً. ريح الدُّبور: هي ريح تهب من الغرب، شديدةُ الهبوب. وتقابلها ريح الإقبال؛ فهي تهب من الشرق، وهي التي تسمى ريح الصِّبا أيضاً. تباري: تسابق).

يؤكد الشاعر هنا أن العبرة بالمُخبر لا بالمنظر، فحماره؛ وإن بدا هزياً نحيلاً، فإنه عند الاختبار، والجري في السياقات ذات الأخطار، يتفوق على غيره من الحمير، ويسبقها، ويفوز بالرهان. وهو حمارٌ ذكي، متوقِّد الذكاء، فكأنه في جريه ريح الدبور.

ولعل من المناسب أن نختم هذه المقالة بمجموعةٍ من الطرائف حول الحمير، لنعود إليكم في المقالة القادمة، بأحاديث وأقاويل في ذمِّ الحمير.

قال الجوهري في مادة (عشر): تعشيرُ الحمار: نقيقه عشرةً أصواتٍ في طلق واحد، قال الشاعر:

لعمري إنَّ عَشْرَت من خيفة الردى نُهاق حمارٍ، إنني لجزوعٌ

وذلك أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا خاف من وباء بلد، عَشَرَ تعشير الحمار قبل دخولها، فيقيه ذلك من الإصابة به، وما هو بنافعهم في شيء، ولكنها الأسطورة.

قال مسروق: كان لرجلٍ من البادية حمارٌ وكلب، وديك، فكان الديك يوقظهم للصلاة، والكلب يحرسهم، والحمار ينقلون عليه الماء، ويحمل لهم خيامهم. فعدا الثعلب على الديك وأكله، فحزنوا لذلك، وكان الرجل صالحاً فقال: عسى أن يكون خيراً. ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار، فقتله، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً. ثم

أصيب الكلب أيضاً ومات، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، وربما ضاق بالرجل أهله، وبتسليمه الأمر، ولكنهم أصبحوا ذات يوم بالعدو قد نهب وسبى من كان حولهم، وبقوا هم سالمين، وعلموا أنها أخذ أولئك بما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فآمنوا أن ما حل بهم كان من تقدير الله ولطفه بهم، وتهيئة الأسباب لسلامتهم، فحمدوا الله، وكم لله من لطف خفي لا يعلمه إلا هو.

وذكر الماوردي وغيره أن سفيان بن سعيد الثوري أكل ليلة زائداً على عادته، فقال: إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، ثم قام يصلي حتى أصبح. وكم أكلنا وزدنا في الأكل إلى حد التخمة، ولا قمنا ولا تهجدنا، وربما بعضنا لم يحمد الله على نعمائه، ولم يشكره على آلائه، فاللهم عفوك!

وكان فتى يجالس الثوري، ولا يتكلم، فأحب الثوري أن يعرف كلامه ونطقه، ويعرف ما عنده: فقال له: يا فتى! إن من كان قبلنا مروا على خيول سابقة، وبقينا بعدهم على حمير دبرة. فقال الفتى: يا أبا عبد الله، إن كنا على الطريق، فما أسرع لحوقنا بهم!

المهم أيها الإخوة أن نكون على محجة الطريق الصحيحة، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، فهل نحن بالفعل على الطريق ليمكننا اللحوق؟ فالألف ميل تبدأ بخطوة. وعلى الله قصد السبيل.



في وجه الحمير

إذا كنا في لقاءٍ سابقٍ قد أوردنا بعض ما قيل في الحمير على سبيل المدح، فإننا سنورد فيما يلي بعض ما قيل في ذمّها، وبما أنني موتورٌ منها، فإنني أستطيعُ ذمّها، وأستريح إلى النيل من الحمير والمتحمّرين، حسّاً ومعنى، وأجد ما فعله بعض الأسبان في العصر الحديث، واقتدى بهم فيه جماعة من الإخوة المصريين، منهم: أنيس منصور، من اهتمام بالحمير، وتأسيسهم جمعية للرفق بالحمير، أجد ما فعلوه ضرباً من العبث والجهل بأضرار الحمير، إلا أن يدخل فعلهم في باب الرفق بالحيوان بصفة عامة، إذ الحمير في عامتها لا تحسن سوى الرّفس والركل، والعض والعنقصة، والخنس والحيد، فإذا أسقطت أحداً من فوق ظهرها قالت بلسان الحال والواقع: أحضروا المسحاة والفاس، لولد الناس، ومهما زينوا في الحمار، فسوف يبقى حماراً، ويكفيه قرفاً أنه حمار، له نسبٌ في الحامرين عريق، وبئس العائر والعير!

يقول أبو الهيثم، خالد بن يزيد الكاتب، وكان بغدادياً من أصلٍ خراساني، يعمل كاتباً في الجيش العباسي:

وقائل: إن حماري غدا	يمشي إذا صوّب أو أصعداً
فقلت: لكنّ حماري إذا	أحشّه لا يلحق المقعداً
يستعذب الضّرب، فإن زدته	كاد من اللذة أن يرقدا

وقال أبو الحسين، يحيى بن عبد العظيم الجزار، الشاعر المصري المعروف، من شعراء القرن السابع:

هذا حماري في الحمير حمارُ في كل خطوٍ كبوة وعشارُ
قنطارُ تبُن في حشاه شعيرةُ وشعيرةُ في ظهره قنطارُ

فهو حمار عريقٌ وأصيلٌ في الحميرة، وفي البيت الثاني يعتمد في نقل الصورة على التقابل بين التصغير فيما يعلفه حماره، والتكبير فيما يحمله، بين القنطار والشعيرة، وفيما بين ذلك تتشكل الصورة المضحكة.

ولما مات حمار هذا الشاعر، داعبه شعراء عصره بمراثٍ هزليّات، فقال بعضهم:

مات حمارُ الأديب قلتُ: قضى وفاتَ من أمره الذي فاتا
ماتَ وقد خَلَفَ الأديب، ومَنْ خَلَفَ مثْلَ (الأديب) ما ماتا

فالجزّار داخل هذه المداعية هو ابن هذا الحمار، ووريثه الذي يستطيع أبوه الحمار أن يرفع به رأسه، على حد المثل العامي: (اللي خَلَفَ ما مات). ونحو هذين البيتين قول الآخر في حمار الحكيم (ثوما):

قال حمارُ الحكيم (ثوما): لو أنصفوني لكنتُ أَرْكَبُ
لأنني جاهلٌ بسيطٌ وصاحبي جاهلٌ مركَّبُ

فالشاعر يرى من خلال حماره أن بعض من يركبون الحمير هم أولى بأن يُركبوا، لأنهم أجهل من (الحمير التي يركبونها).

وحمار (ثوما) هذا يُضربُ به المثل في الجهل، وخُصَّ بذلك فيما يبدو لأن صاحبه كان طبيباً، وشتانَ بين حمارٍ وطبيب! ومما قيل في هذا في معرض الهجاء:

إليه بالجهل راح يُوما مثل حمار الطبيب (توما)

لاحظ الجناس بين (يُوما، توما)

ومن الحمير التي حظيت بالهجاء والذم: حمار طيّاب، وطيّاب هذا كان سقاءً يحمل قرب الماء على حماره لبييعها للناس. قال الثعالبي «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب»^(١): كان لطيّاب السقاء حماراً قديماً الصلبة، ضعيف الحمل، شديد الهزال، ظاهر الانخزال، كاسف البال، يسقي عليه، ويرفق به، وكان عرضةً لشعر أبي غلالة المخزومي، هجاه بنيّف وعشرين مقطوعة، وصف فيها ضعفه وهزاله، وتوجعه من الخسف، وشكواه من الظلم، الأمر الذي جعل حمار طيّاب يظفر بالاهتمام، وتضرب به الأمثال كما ضرب المثل ببغلة أبي دلامة، التي اقتعدت شعر أبي دلامة نفسه، وشاة سعيد، وطيلسان ابن حرب اللذين استقرّا في قوافي الشاعر الحمدوني. وقد أورد حمزة الأصبهاني في كتابه (مضاحك الأشعار) شعر أبي غلالة في حمار طيّاب، ورتبه على حروف الهجاء، وأورد ابن أبي عَوْن في كتابه (التشبيهات) مختاراتٍ منه.

قال الثعالبي: وحكى محمد بن داود الجراح عن جعفر رفيق طيّاب، أن حمار طيّاب مات، فمات طيّاب على إثره بعد أسبوع، ثم مات أبو غلالة على إثر طيّاب، فكان ذلك من عجيب الاتفاقات.

ومما قاله أبو غلالة في هذا الحمار المخلّد:

ذاك حمارٌ حليفٌ أوصابٍ
من وجهه ذو جنة، متصابٍ

يا سائلي عن حمار طيّابٍ
كأنه والدُّبابُ يأخذه

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص ٣٦٦).

ومما أورده حمزة الأصفهاني، والنويري في نهاية الأرب قوله:

وحمارٍ بكتٍ عليه الحميرُ	دقَّ حتى به الرياحُ تطيرُ
كان فيما مضى يقوم بضعفٍ	فهو اليوم واقفٌ لا يسيرُ
كيف يمشي، وليس يُعلَفُ شيئاً	وهو شيخٌ، من الحمير كبيرُ
يأكل التبن في الزمان ولكن	أبعد الأبعدين عنه الشعيرُ
لمح القتّ مرّةً من بعيدٍ	فتغنّى، وفي الفؤاد سعيّرُ
ليس لي منك يا ظلوم نصيبٌ	أنا عبد الهوى، وأنت أجيرُ

فهو يرسم لهذا الحمار صورةً مضحكةً، فهو هزيلٌ ناحل، لا تكاد تراه العين، حتى ليُخشى عليه أن تطير به الرياح، وهو خائر القوى، ضعيف الرؤية، يحلم بالقتّ (العلف من الحشيش الطريّ) ولا يجده، أو يحصل عليه.

وقد وهم محقق «نهاية الأرب»^(١) حين قال: إن طيّاباً شاعر، وإن ما قيل في حماره من شعره، وإنّ مقطوعاتٍ منه موجودةٌ في شرح القاموس، وقد رجعت إلى (تاج العروس)، فلم أجد أي شعرٍ يخص حمار (طيّاب). وتأكدت من خلال «ثمار القلوب» للثعالبي: أن الشعر لأبي غلالة المخزومي، وليس لطيّاب، فإنّ طيّاباً لا يعدو أن كان صاحب هذا الحمار.

* * *

(١) نهاية الأرب (١٠: ٩٩).

بقية هجاء للحمير

طوينا الصفحة في الأسبوع الماضي، ولما يزل في الجعبة مسبات كثيرة للحمير،
تشرح القلب، وتشفي الصدر من غريمي الحمار.

وأنا حينما أورد هجاء الحمير الحقيقية، أحس أن ذلك الهجاء، وأكثر منه، ينبغي أن
يوجه للحمير المجازية، حمير الإنس، وتُصلى بها جباههم وظهورهم، وتسودُّ بها وجوههم
ودفاترهم.

ومن الأثار الهجائية في هذا الباب: قول جرير بن عبد الله: لا تركب حماراً، فإنه
إن كان حديداً أتعب يديك، وإن كان بليداً أتعب رجلك. (الحديد: النشيط القوي
القلب. البليد: الضعيف الذكاء، القليل النشاط).

وسئلت أعرابية عن الحمار، فقالت: لعنه الله، لا يُذَكَّى، ولا يُزَكَّى، وإن أطلقته
ولّى، وإن ربطته أدلى، عظيم الحرارة، بطيء الغارة، لا ترقأ به الدماء، ولا تمهر به
النساء، ولا يحلب في الإناء.

وكتب أبو الحسن بن نصر الكاتب رسالةً إلى صديق له اشترى حماراً، يداعبه
فيها، فقال:

(وقد عرفت - أبقاك الله - حين وجدت من مكروه الأيام إفاقةً، وأنست من
وجهها العَبُوس طلاقةً، كيف أجبت داعي همّتك، وأطعت أمر مروءتك، فسررتُ
بكمون هذه المنقبة التي أضمرها الإعدام، ونمّ على كريم سرّها الإمكان، واستدللتُ

منها على خبايا فضل، وتنبهت منها على مزايا نبل، كانت مأسورة في قبضة الإعسار، وكاشفة عن سُدفة الإقتار (السُدفة - بضم السين وفتحها -: الظلمة في لغة تميم، وهي المراد هنا).

وقلت: أيُّ قدمٍ أحق بولوج الرّكب من قدميه، وحاذٍ أولى ببطون القُبِّ من حاذيّه؟ (الحاذان: لَحْمَتَانِ في ظاهر الفخذين، تكونان في الإنسان وغيره، قال الشاعر:

خفيفُ الحاذِ، نَسَالُ الفياقي وعبدٌ للصّحابة غير عبدِ

وجمع الحاذ: أحواذ. والقُبّ: جمع أقبّ وقبّاء، وهو الضامر البطن من الخيل).

وأيُّ أناملٍ أبهى من أنامله إذا تصرّفت في الأعنة يسراها، وتحكّمت بالمخاصر يمناها؟ وكيف يكون ذلك الخلق العظيم، والوجه الوسيم، وقد عبّهر جالساً، إذا طلع فارساً؟ ثم اتّهمتُ آمالي بالغلو فيك، واستبعدت مناقضة الزمان بإنصاف معاليك، فقبضتُ ما تبسط من عنانها، وأخذتُ ما اشتعل من نيرانها، حتى وقفتُ على صحيحة الشك.

أرجو علوّ همتك بحسن اختيارك، وأخشى منافسة الأيام في دَرْك أوطارك، فإنها كالظّانة في ولدها، والمجاذبة بالسوء في واحدّها، يدني الأملُ مُسارّها، ويرجي القلقُ حذارّها، حتى أتتنا الأنباء تنعى رأيك الفائل، (الضعيف الخاطيء)، وتقلّ عزمك الآفل، بوقوع اختيارك على فاضح صاحبه، ومسلم راكمه، الجامد في حلبة الجياد، والحاذق بالحِران (عدم الانقياد) والكياد، الشؤم دينه ودأبه، والبلادة طبيعته وشأنه، لا يصلحه التأديب، ولا تُقرع له الظنابيب (الظنبوب: هو حرق الساق، وقرع الظنبوب: أن يقرع الرجل ظنبوب راحلته بعصاه، إذا أناخها ليركبها ركوب المجدّ المسرع).

إن لحظَ غيراً نهق، أو لمح أتاناً شبق، أو وجد روثاً شمّ وانتشق، فكم هشم سنّاً لصاحبه، وكم سعط أنفَ راكمه! وكم استردّه خائفاً فلم يرُدّه، وكم رامه خاطباً فلم يُسعده، ويَعْجَلُ إن أحبَّ الأناة والإبطاء، ويرسخُ إن حاول الحثّ والنّجاء،

على الكيد والخلاف، موضوعٌ للضعة والاستخفاف، عزيزٌ حتى تهينه الشياطين، كسولٌ ولو أبطره النشاط، ما عرف في النجاة أبا، ولا أفاد من الوعي أدباً، الطالب به محصور، (محبوس)، والهارب عليه مأسور، والممتطي له راجل، والمستعلي بذروقه نازل، له من الأخلاق أسوأها، ومن الأسماء أشنؤها، ومن الأذهان أصدؤها، ومن القدود أحقرها، تجحده المراكب، وتجهله المواكب، وتعرفه ظهور السوابك، وتألفه سباطات المبارك، والله الموفق (السُّباطة: المراغة).

هذه رسالة إخوانية كُتبت بدافع المداعبة، ولذا فإن ما جاء فيها من أوصافٍ غير مقصود به النيل من المرسل إليه، وإنما المراد المضاحكة، فهي صادرةٌ من قلب محب، ومشاعر مخلصه، وقد جاء كاتبها على ذكر أكثر معائب الحمير، وأبرزها؛ في شكل مثير للضحك والاشمئزاز.

ومما قاله أبو غلاله المخزومي في ذمّ الحمار، غير ما سبق إirاده، قوله في حمار (طياب السقاء) أيضاً:

حمارٌ أناخ به ضُرُّهُ	ودار عليه بذاك الفلكُ
يميل من الضعف في مشيه	ويسقط في كل درجٍ سلكُ
فأما الشعير؛ فما ذاقه	كما لا يذوق الطعامَ الملكُ
يغني على القَتِّ لما يراه	وقد هزه الجوع حتى هلكُ
أخذت ضميري فعذبتُه	وأسهرت عيني فما حلَّ لكُ

وقوله أيضاً:

لم أبك شجواً لفقد حبِّ	ولا ابتلاني بذاك ربي
لكنني قد بكيتُ حزناً	على حمارٍ لجارٍ جنبٍ

لو شَمَّ رِيحَ الشعير شَمًّا من غير أَكَلٍ لقال: حَسبي!
أو عاينَ القَتَّ من بعيدٍ يوماً لَغَنَى بِصوتِ صَبٍّ
ليس يزول الذي بقلبي يا من جفاني بغير ذنبٍ

ونلاحظ أن المقطوعتين تدوران حول أفكار واحدة، هي ضعف هذا الحمار، وبخل صاحبه عليه بالعلف من قَتٍّ وشعير، فهو يحلم بذلك ويناغيه من بعيد.

وقال فيه أيضاً:

حمارُ (طِيَابٍ) لا تُحصى معاييهُ ما فيه أكثرُ ممَّا قَلَّتْه فيه
قد دَقَّ حتى رأيتُ الخيط يشبههُ من الهُرَّال، وعين الضَّرُّ تبكيه
ما زال يطلب وصل القَتِّ مجتهداً والقت يقتله بالصدِّ والتيه
حتى تغنَّى له من طول جفوته صوتُ ييوج بما قد كان يخفيه
النجمُ يرحمني مما أكابده وأنت في غفلةٍ عما أقاسيه

ونلاحظ أن لغة هذا الشعر تعتمد على البساطة في المفردة والتركيب وبناء الصورة، ولا جرم؛ فهي حمارية المحتوى، لكنها لا تخلو من طرافة، وفتح لباب الدعابة والإضحاك، أدت دورها في القديم، وما زالت تؤديه، وها نحن نبعثها من مرقدتها من جديد، ولا شك أن حمار طيابٍ محظوظٌ حين تناوله هذا الشاعر في شعره، إذ لولاه لما عرفناه، ولما كان من الخالدين، وسبحان الله! فكأن الخلود يوهب للحيوان كما يوهب للناس، دون معايير أو موازين، والخلود لا ريب هو ذكرٌ ثانٍ للإنسان، طلبه حتى الأنبياء، والمرسلون، ولكن شريطة أن يكون ذكراً طيباً عطراً، كما طلبه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

ويظل وهم الخلود يداعب أجفان البشر من كل لون وجنس، وفي كل مجال،
تدور عليه أحلام الجميع، ثم يأتي الوقت الذي نقول فيه:

دار الزمان على دارا وقاتلهُ وأمم كسرى، فما آواه إيوانُ



طرائف حمارية

الشيء الطريف: الطيب الغريب. قال خالد بن صفوان في تمييز الكلام، وتفضيل بعضه عن بعض: خير الكلام ما طُرِفَ معانيه، وشرُفَ مبانيه، والتدثَّه آذان سامعيه.

وطرائف الحديث: مختاره، قال الشاعر:

أذكرُ من جارتِي ومجلسها طرائفاً من حديثها الحسنِ
ومن حديثِ يزيدني مِقَّةً ما لحديثِ الموموق من ثمنِ

قال الأزهري: سمعتُ أعرابياً يقول لآخر قَدِمَ من سفر: هل وراءك طريفةٌ خير تُطَرِّفُناه؟ يعني خبراً جديداً.

فالطريفة على هذا النحو تتضمن الجودة والجودة والغرامة.

أما الطُّرفة فهي: العطية والهدية. قال في «اللسان»: أطرفتُ فلاناً شيئاً، أي: أعطيته شيئاً لم يملك مثله، فأعجبه.

والاسم: الطُّرفة، قال بعض اللصوص بعد أن تاب:

قل للصوص بني اللخناء يحسبوا بُرَّ العراق، وينسوا طُرفة اليمينِ

وهي مرادفةٌ للتُّحفة، واللُّطفة أو اللُّطفة، قال أبو العتاهية:

ألا أين الألى سلفوا دُعوا للموت، واختطفوا

فوافوا حيث لا تُحَفُّ ولا طُرَفٌ، ولا لُطَفٌ
ترصُّ عليهم حُفَرٌ وتُبْنَى ثم تَنخَسَفُ

وقد كانت بعض الصحف تستحدث مساحةً فيها للطرائف العربية أو العالمية، واعتاد الناس أن يجدوا في تلك الطرائف الجدة والمتعة والفائدة، فإذا تحركت عصافير بطونهم تذكروا (القطائف)، فجمعوا بذلك بين ما ينفع الجسم، وما يغني العقل، ويحرك الوجدان. والطرائف التي نوردها لكم اليوم، تحمل لكم بين يديها صكَّ غرابتها، منذ لحظة وقوع العين على عنوان المقال، فهاؤُم اقرأوا هذه الطرائف الحمارية، وتأملوها معي، فهي لا تخلو من عظةٍ أو عبرة، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

من ذلك؛ ما نقله ابن الجوزي في كتابه (الأذكياء) عن الجاحظ أنه قال: قال ثمامة ابن أشرس: دخلت على صديق لي أعوده، وتركت حماري على الباب، ولم يكن معي غلام يحفظه، فلما خرجت وجدت فوقه صبيّاً يحفظه. فقلت له: أركبت حماري بغير إذن؟ فقال: خفت أن يذهب فحفظته لك، فقلت: لو ذهب لكان أحب إلي من بقاءه، فقال: إن كان هذا هو رأيك في الحمار، فقدّر أنه ذهب وهبّه لي، واربح شكري. قال ثمامة: فلم أدر ما أقول !

وفي «تاريخ» ابن خلّكان، في ترجمة الحاكم العبيدي؛ المعروف بالحاكم بأمر الله، ذُكِرَ أنه كان يملك حماراً أشهب اسمه (بقمر)، يستعمله غالباً في تنقلاته الخاصة، ويركبه في حوائجه وزياراته، غير أنه كان يحب الاعتزال والانفراد، والركوب وحده، فخرج راكباً حماره ليلة الاثنين، سابع عشر شوال، سنة (٤١١هـ) إلى ظاهر مصر (يعني مصر القديمة التي بها جامع عمرو بن العاص)، وطاف ليلته كلها، وأصبح متوجّهاً إلى شرقي (حُلوان) ومعه راكبان، فأعادهما تباعاً، وواصل التطواف منفرداً، وبقي الناس ينتظرون رجوعه، ومعهم دواب الموكب، إلى يوم الخميس سلخ الشهر

المذكور، ثم خرج ثاني ذي القعدة جماعةً من الموالي والأتراك، فأمعنوا في طلبه، ودخلوا الجبل، فرأوا حمارة الأشهب الذي كان راكباً عليه، وهو على قرنة الجبل، وقد ضربت يده ورجلاه بسيف، وعليه بردعته ولجامه، فتبعوا الأثر، فإذا أثر حمارٍ، وأثر راجلٍ خلفه، وراجلٍ قدامه، فقصوا الأثر إلى البركة التي في شرقيّ (حلوان)، فنزل فيها رجل، فوجد فيها ثياب الحاكم بأمر الله، وهي سبع جباب، وجدوها مزرّرة، وفيها آثار سكين، فحُمِلت إلى القصر، ولم يشكّوا في قتله، متهمين في ذلك أخته، وأنها دست له من قتله. غير أن جماعةً من المغالين في حبه، الذين أفقدهم الغلو القدرة على التفكير السليم، يدّعون أنه ما يزال حيّاً، ولكنه غائب سيظهر آخر الزمان.

والقصة رغم دخولها، أو دخول بعض أجزائها على الأقل، في إطار اللامعقول، فإنها ذات صلة وثيقة بالحمار. ويبدو أن التاريخ الإسلامي ابتلي كثيراً من شخصياته بداء الغيبة، وابتلي العامة بمزيدٍ من الانتظار، رعى الله الغائبين والحاضرين.

وما تزال الأمة الإسلامية منذ وقوعها في شرك الغلو، غائبة أو مغيبة عن قضاياها وعن ذاتها:

مَغْيَبُونَ وَيَقْضِي النَّاسُ أَمْرَهُمْ وَهُمْ بَغِيبٌ، وَفِي عَمِيَاءٍ مَا شَعُرُوا

ويسرّني أن تكون الطريقة الثالثة من أفواه الأطفال، تلکم هي حكاية الحمار والنملة.

تعقد الحكاية صداقةً بين الحمار والنملة، وتلغي فوارق الحجم والوزن والسلوكيات، وهكذا يسمح خيال الأطفال المرن جداً بتخيل الممكن واللاممكن، وتوحي لغة هذا الخيال للعالم بوجوب البحث عن لغةٍ للتفاهم بين أطرافه، لا محاولة البحث عن عوامل الفرق بين أفراد المجتمع الواحد، وإحياء النعرات الفاسدة. ولاحظوا معي أن الحمار والنملة مهيّان لإقامة أسرة؛ إذ هما ذكرٌ وأنثى. عاش هذان الصديقان - كما تذكر الحكاية - رداً من الزمن في سعادةٍ غامرة، وعيشٍ هادئٍ؛ لا يكدره شيء، وذات مرة،

خرجوا من مقر سكناهما، ونسيا مفتاح الباب داخل الشقة، وتساءل الصديقان: من في استطاعته أن يدخل الشقة، والباب مغلق، لاجتلاب المفتاح؟ ويوجه الطفل الحكواتي، إلى زميله السؤال نفسه، فيجيب على الفور: النملة طبعاً، وذلك لإمكانها الدخول من أي فتحة صغيرة. فيقول الطفل الحكواتي: وهكذا كان رأي الحمار، ثم تنطلق الضحكات! وكم في الحياة من مضحكات مبكيات! وكم من حمير يعيشون في ثبات ونبات، والله في خلقه شؤون وآيات!



أكذاب حمارية

أمثلي تُقبل الأقوال فيه ومثلُك من يجوز لديه كِذْبُ

الكِذْبُ (بكسر الكاف وسكون الذال) كالكِذْبُ (بفتح الكاف وكسر الذال)، كلاهما مصدر الفعل: كَذَبَ يَكْذِبُ، أي: أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه في الواقع، وقيل: الإخبار عن الشيء بخلاف اعتقاد المتكلم. وهو في جميع الحالات نقيض الصدق.

وقد يأتي الكِذْبُ (بفتح الكاف وكسر الذال) بمعنى مكذوب، فهو (مفعول)، وذلك كقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] أي: مكذوب.

وتأتي (كَذَبَ) بمعنى وَجَبَ، ومن ذلك حديث عمر، رضي الله عنه: «كَذَبَ عليكم الحجُّ، كَذَبَ عليكم العمرة، كَذَبَ عليكم الجهادُ، ثلاثة أسفارٍ كَذَبْنَ عليكم»، أي: وجب عليكم كذا.

وتكاذيب العرب: أساطيرها وخرافاتها. أما الأكاذاب فجمعٌ للكِذْبُ (بكسر فسكون) على غير قياس، لأنه مصدر، والمصادر لا تجمع قياساً. والأولى، اعتبارها جمعاً لكِذْبة، كلعبة وألعاب، وفكرة وأفكار، وحقيية وأحقاب.

والكِذْبة (بفتح فسكون) اسم مرةٍ من الكِذْبِ، ومنها كَذْبة أبريل، وهي أكذوبة يتعابث بعض الناس بها في أول هذا الشهر من كل سنة، قال في «المعجم الوسيط»: (إن

هذا الاستعمال مُحَدَّث). وقال: ويقال لها: سمكة أبريل أيضاً. وهي من الأكاذاب الحمارية، سواءً من حيث موردها، أو من حيث استعمالها.

أما من حيث موردها فقد ذكروا: أن أحد الفرنسيين إبان تقليعات الثورة الفرنسية، أعلن عن مزادٍ كبيرٍ لبيع مجموعاتٍ من الحمير النادرة والتميزة، وذلك في أحد الميادين العامة بباريس، وحدد الموعد بغرة شهر أبريل. ولما حل الموعد تجمّع الناس من كلّ حدبٍ وصوبٍ، واحتشدوا مُبكرين بالميدان المذكور، وعاشوا انتظاراً طويلاً مملاً، وتبادلوا أطراف الحديث حول التجمع ودواعيه ونتائجه، وفجأة؛ طلع عليهم أحدهم من إحدى العماير الشاهقة بمكبّر الصوت (المُجهر)، مرحّباً بهم، شاكرّاً تليبتهم الدعوة، ومهنّئاً بهذا الاجتماع الحاشد من أجل الحمير، ليعلمهم بأنه لا حمير، ولا شراء ولا بيع، وأنها كذبةٌ بيضاء، ولتسموها - إن شئتم - كذبة أبريل، فعُرفت منذ ذلك الحين بهذا الاسم، وانتقلت إلينا فيما انتقل من تفاهاتٍ غريبة، علماً بأن فاعلها الأول لم يعرفه أحد، إذ إنه اختفى بسرعةٍ عن الأنظار.

وما يزال التعابث بهذه الكذبة قائماً بين الناس إلى الآن، وقد كنت ذات يومٍ من ضحاياها، وأجدها فرصة سانحة لأندّد بها، وبمخترعها الحمايري ومقلديه.

وأما حماريّة استعمال هذه الكذبة فتأتي من جهة تأثيرها على المكذوب عليه، فربما كانت أشدّ من عضّة الحمار، وأقوى أثراً من ركلاته ورفساته! ففي اعتقادي أنها كذبة في غاية الوحشية والهمجية، وإن تمخّضت عن عقولٍ تزعم أنها متمدنة. فليتنا نعلم أن التمدن والتحضّر إنما يكون بوسائل أخرى غير العبث بعباد الله وترويع الآمنين، فذلك شيءٌ تحرمه الشريعة الإسلامية، وتأباه حتى على الحيوان. فقد جعل الأوروبيون الكذب أنواعاً: فمنه الأبيض، والأسود، والرمادي. فالأبيض: الذي لا يتسبب في ضياع حقوق الآخرين والإضرار بهم بطريقة مباشرة. والأسود: ما كان عكس ذلك،

والرمادي: يكون فيما بين ذلك، حيث يُرتكب لمجرد الضحك والإضحاك، ومنه كذبة أبريل، التي صارت تُضرب مثلاً لكل كذب لا أصل له.

والكذب في الإسلام كله أسود، وإن اختلفت درجاته باختلاف درجات ضرره، ولم تُجزِ الشريعة الإسلامية الإخبار بغير الواقع إلا في أمورٍ يتحقق من ورائها الخير، وذلك في مجال إصلاح ذات البين، وكان ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها، وقال: «إن في المعارض لمدوحة عن الكذب». فهذه الأنواع الثلاثة كذب من حيث يظنه السامع، وصدق من حيث يقوله القائل. وإنما كان الكذب رذيلة محرمة لما فيه من فسادٍ في طُوية الكاذب، والإضرار بالمكذوب عليه.

ومن الأكاذب الحمارية أيضاً: أن صديقين كانا مسافرتين على حمار، وفي طريقهما مرض الحمار ومات، فقاما بدفنه، واحتارا في أمرهما، فقد كانا يستعملانه للركوب ونقل أمتعتهما، وكانا ينويان الاشتغال عليه بالبلد الذي يقصدانه، فأقاما فترة يفكران، ثم عنت لهما فكرة غريبة؛ سرعان ما نهضا إلى تنفيذها، تتلخص في: إقامة (ضريح) على قبر الحمار، بدعوى أنه قبر رجل صالح، وولي من أولياء الله، وإشاعة أن زيارته تجلب البركة، وتدفع الضرر، إلى غير ذلك من الأكاذيب. وصدقهما العامة، وأقبلوا عليهما دون حدود، وقسما العمل بينهما؛ على أن يمثل أكبرهما دور الشيخ الوسيط، ويقوم أصغرهما باستقبال الزوار، واستعلام أحوالهم، ومن ثم تسريبها إلى الشيخ للإفادة منها في مفاجأة الزائرين والتأثير عليهم. ومرت الأيام على هذا النحو، وأخذ ثروة كبيرة، وملا الطمع نفسيهما، واتهم أحدهما الآخر بأخذ حصة أكثر من الدخل. فقال المتهم مطمئناً صاحبه: أحلف لك برأس سيدي حمران (يعني الحمار المدفون) أنني صادق في تعاملتي معك. فقال الآخر: على مين؟ (نحن دافنيو سوا) أي: أننا نعرف جميعاً أن لا ولي أساساً، وأنه لا يوجد تحت القبة غير عظام الحمار. وصار حالهما مثلاً يُضرب لكل حالات الكشف عن الرجل وردّه، وبخاصة بين السابقين المشتركين في الشأن الواحد.

ونحن لا نلوم الحمير على كونها في مثاليّنا السابقين كانت وسيلةً لتنفيذ الكذب،
إذ لا لوم على الحمير، فهي غير عاقلة، وإنما اللوم على أصحاب الحمير والمتحمّرين!

* * *

حماريات شوقي

في الجزء الرابع من «الشوقيات»، وتحت عنوان (الخصوصيات)، كتب الشاعر أحمد شوقي مجموعة من القصائد تحمل جميعها طابع البساطة وخفة الدم، وفيها الكثير من التسلية والفكاهة، في الوقت الذي تقدم فيه لقرائها جرعة معرفية، وتقوم كلها على الروح القصصية، وقد اخترت هنا ما يخص الحمار فقط، وهي خمس قصائد جاءت متفرقة على النحو التالي:

١- القصيدة الأولى تتحدث عن شبل الأسد وخطبة الحمار فيه، ويبدوها بقوله^(١):

لما دعا داعي أبي الأشبالِ	مبشراً بأول الأنجالِ
سعت سباعُ الأرض والسماءِ	وانعقد المجلس للهناءِ
وصدر المرسوم بالأمانِ	في الأرض للقاصي بها والداني

إننا مُقدمون على حفل بمناسبة سعيدة لدى الأسد ملك الغابة، وهي ازديان عرينه بميلاد شبلة الأول. وهذا يعني كثرة المهنتين من سباع الأرض والجو، الذين غصت بهم الأفناء:

ففاق بالذيول صحنُ الدارِ	من كل ذي صوفٍ، وذئبٍ منقارِ
حتى إذا استكملت الجمعية	نادى منادي الليث في المعية

(١) الشوقيات (٤: ١٣).

هل من خطيبٍ محسنٍ خبيرٍ يدعو بطول العمر للأمير؟

فتقدم الفيل، ثم الثعلب، ثم القرد، وألقى كل منهم خطبةً بهذه المناسبة، ثم جاء دور الحمار:

وأوماً الحمارُ بالعقيرة يريد أن يشرف العشيّة
فقال: باسم خالق الشعير وباعث العصا إلى الحمير
فأزعج الصوت (طريّ الزند) فمات من رعدته في المهد

وهذا يعني أن الحمار ارتكب بصوته المنكر، جريمة لا تُغتفر، وهي موت الشبل الصغير، وكم من أصوات منكرة انطلقت من حناجر ملوثة، فكانت سبباً في هلاك المقبلين على الحياة، فهل يمر ما فعله هذا الحمار بسلام؟!

فحمل القوم على الحمار بجملة الأنياب والأظفار
وانتدب الثعلب للتأبين فقال في التعريض بالمسكين
لا جعل الله له قراراً عاش حماراً وقضى حماراً!

٢- القصيدة الثانية بعنوان: (الأسد ووزيره الحمار)^(١) ويبدوها بجدل يدور بينه

وبين رعيته بشأن اختيار وزير له، فيقول:

الليثُ ملك القفار وما تضمُّ الصحاري
سعت إليه الرعايا يوماً بكل انكسارٍ
قال: تعيش وتبقى يا دامي الأظفار
مات الوزيرُ فمن ذا يسوس أمر الضواري؟

(١) الشوقيات (٤: ١٤٧).

قال: الحمارُ وزيري قضى بهذا اختياري
فاستضحكتُ ثم قالت ماذا رأى في الحمارِ؟

وما هي إلا فترةٌ يسيرة، فإذا بآثار هذا الاختيار السيئ بدأت تظهر للعيان، وندم
الليث على ما فعل ولات حينَ مندم!

لم يشعر الليث إلا ومُلكه في دمارِ
القرد عند اليمين والكلب عند اليسارِ

وخاطبه القرد قائلاً:

يا عالي الجاه فينا كن عالي الأنظارِ
رأيُ الرعية فيكم من رأيكم في الحمارِ

٣- القصيدة الثالثة بعنوان (الحمار في السفينة)^(١) وهي في الحقيقة مقطوعةٌ صغيرة
مكونةٌ من ثلاثة أبيات، ولكنها تعالج فكرةً عظيمة:

سقطَ الحمارُ من السفينة في الدُّجى فبكى الرفاق لفَقْدِهِ وترحموا
حتى إذا طلع النهار أتتْ به نحو السفينة موجةٌ تتقدّمُ
قال: خذوه كما أتاني سالماً لم أبتلغْهُ، لأنه لا يُهضمُ

٤- القصيدة الرابعة بعنوان: (الحمار والجمل)^(٢) بدأها بقوله:

كان لبعضهم حمار وجمل نالهما يوماً من الرِّق مللٌ

(١) الشوقيات (٤: ١٦٧).

(٢) المرجع السابق (٤: ١٧٥).

فانتظرا بشائر الظلماء وانطلقا معا إلى البيداء
يجتليان طلعة الحريرة وينشقان ريحها الزكية
وبعد ليلة من المسير التفت الحمار للبعير

ولم يستطع الحمار تحمّل جو الحرية، فعاد بعد أعذارٍ مصطنعة، إلى القيد، وأنهى شوقي قصيدته بكلمة من الجمل، ألقى بها في وجه هذا الحمار فقال:

سر والزّم أخاك الوتدا فإنما خلقت كي تُقيّدَا

وشوقي هنا يشير إلى البيت العربي القديم :

ولا يقيم على ضيمٍ يراد به إلا الأذلان: عيرُ الحيّ، والوتدُ

٥- هي مقطوعة بعنوان: (ثعالة والحمار)، بدأها بقوله:

أتى ثعالة يوماً من الضواحي حمارٌ

وختمها بسؤال من الحمار لخصه في بيتين:

طرحْتُ مولاي أرضاً فهل بذلك عارٌ
وهل أتيت عظيماً فقال: لا يا حماراً!

٦- وتحت عنوان: (الغزاة والأتان) يقول:

غزاةٌ مرت على أتانٍ تقبلُ الفطيم في الأسنانِ

إلى أن يقول:

فأسرع الحمارُ نحو أمّة وجاءها والضحك ملء فمّة

بصيح: يا أمّاه ماذا قد دها حتى الغزاةُ استخفّت ابنها؟

ولشوقي تحت عنوان «الخصوصيات» قصائد ومقطوعاتٌ متعددة غير الحمازيّات، تحمل كل واحدةٍ منها مضموناً تربوياً هادفاً، بطريقةٍ تقربُ من عمل ابن المقفع في «كلىة ودمنة»، غير أن هذه بالشعر، وتلك بالثر.



مؤلفات في الحمير

لم أكن أنا أول من شغلته حياة الحمير، ولفتت نظره، وشدته سلبياتها وإيجابياتها، تمدحُ فتقول: فلان حمار شغل، وتذمُّ فتقول: فلان حمار، مخه ثخين، وبين المديح والذم يزداد الهم، ويصرخ الحمير والمتحمِّرون من الألم!

فأمامي الآن مجموعة من الكتب التي كتبها أصحابها عن الحمير، وبعضها كتب للأطفال، منها:

١ - التاريخ العريق للحمير وابتسامات أخرى^(١)

وقد جاء في كلمة الناشر على غلاف الكتاب ما يلي:

كانت نصيحة يحيى حقي لقارئه: إياك أن تستهزئ بالأقزام من الحمير والناس! واشتكى توفيق الحكيم من حماره الذي تعلم منه نفاق البشر، فهجره وركض إلى ميدان السياسة، بحيث لم يعد في مقدور الحكيم تمييزه من بين السياسيين.

أما مجيد طوبيا، فقد صاحَبَ الحمير، وأثبت أن لهم تاريخاً عريقاً يفوق تاريخ البشر، وأجرى حواراً عالمياً مع زعيمهم، بثته محطات التلفزيون الفضائية بلغات العالم كلها.

(١) تأليف: مجيد طوبيا - نشر الدار المصرية اللبنانية - القاهرة، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦، وهو مجموعة مقالات.

ويحتل الحديث عن الحمير في الكتاب تسع عشرة صفحة (١٤٥-١٦٤)، وقد استحسناً إيرادها بنصها وفصّها، زيادةً منا في الاهتمام بالحمير. يقول مجيد طوبيا:

التاريخ العريق للحمير

* حمير التاريخ:

في الموسوعات العلمية نعلم أن الحمار من الفصيلة الخيلية نسبةً إلى الخيول، وأنه يوجد بشكله المستأنس في إفريقيا وآسيا وبعض أمريكا وأوروبا وأستراليا، أي في جميع قارات الدنيا. فهو إذن حيوان عالمي مثل الإنسان بالضبط!

ولا أحد يعرف تماماً أيهما أسبق في الاستئناس: الحصان أم الحمار؟ لكن المؤكد أن قدماء المصريين والآشوريين استخدموا الحمار منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد!

وعلى جدران بعض الآثار الفرعونية نقوشٌ ورسومٌ بالألوان تمثل الحمار وهو يحمل منتجات الحقل سائراً إلى جوار صاحبه في دعةٍ وأمان. فإذا علمنا أنه عمل في خدمة الإنسان قبل الحصان بألفي عام، أدركنا عراقة تاريخه ومدى مساهمته في بناء الحضارة.

ويوجد بمصر عدة أنواعٍ من الحمير. منها: الحمار البلدي وهو قليل الحجم سريع السير، والحمار القبرصي وهو صغير الحجم أسود اللون أبيض البطن قوي يتحمل مشاق العمل، ويُجلبُ من قبرص. أما أجود حمير الركوب فتجلب من السودان، وهي كبيرة الحجم قوية سريعة الحركة سهلة الركوب.

* مزيد من التاريخ العريق:

في بعض الأفلام القديمة ترى بوسطجي الأرياف يوزع الخطابات ممتطياً حماراً. هذا الحمار كان موظفاً بمصلحة البريد، يعمل بأكله، وله بند ثابت في ميزانية الدولة كانت تُعتمد من البرلمان لأجل طعامه وشرابه ولأجل تعيين الأطباء البيطريين لمراعاة

صحته. وسبق لإسماعيل ياسين أن قام بدور البوسطجي، ورأيناه يلكز حمار البريد مغنياً «شي يا بتاع البوسطة شي، حايا بتاع البوسطة حا» مع أنه موظف ميري مثله!

والحمار خدم الإنسان بكل وفاء وشهامة، شاركه في الحروب القديمة إلى جانب الحصان. كان المحاربون يقاتلون من فوق صهوات جيادهم، والحمير تنقل هم الأحمال والعتاد، وتعمل بفروع الإمداد والتموين لكل جيوش العالم، وبدونها تنهزم الجيوش!

وقبل اكتشاف وسائل النقل الحديث، شاركت الحمير الجمال في نقل الحجاج المسلمين إلى الحجاز، والمسيحيين إلى القدس. كما شاركت في مسيرات آلاف مؤلفة من حفلات الزفاف.

* حمير الكوكاين:

عندما كانت بريطانيا دولة عظمى، وكانت تحتل مصر، ومتورطة في حرب همجية مع الألمان اسمها الحرب العالمية، كانوا يصادرون همجية ما يصادفونه من دواب الحمل المصرية لصالح المجهود الحربي.

استخدموا الحمير وأبناء عموماتهم، البغال، في نقل الأسلحة والذخيرة والمؤن، مع أن هذه الحيوانات المسالمة لم تكن طرفاً في الحرب!

سخروها في حمل الأحمال عبر الصحاري والطرق الوعرة، ولمسافات طويلة شاقة. وكى تتحمل هذا العذاب تفتق ذهن القيادة العسكرية العليا لقوات بريطانيا العظمى على حيلة وضع المخدرات في علف الدواب، غالباً، مخدر الكوكاين.

تسربت كميات منه إلى بعض جنودهم، ومنهم إلى بعض فقراء المصريين!

كانت هذه المرة الأولى التي تعرف فيها مصر هذا المخدر اللعين، مما أزعج الحكومة المصرية فانبرت لمحاربه. وشارك الفن بدوره، وتغنى المرحوم (حسن فايق) بأغنيته الهادفة الشهيرة «شم الكوكاين خلاني مسكين».

وهذا المخدر الضار يعطي في بداية تعاطيه إحساساً كاذباً بالنشاط والحيوية، ثم يبدأ بتدمير متعاطيه. فكانت الحمير البائسة، المأخوذة من أصحابها قسراً، تحمل أكثر من طاقتها، وتمشي أضعاف ما تستطيع، وفي النهاية تنفُق وتنهار ميتة من ظلم الإنجليز! أما عن التعويض المالي لأصحابها المصريين فكان أمراً مشكوكاً فيه!

* حمير الجبرقي:

وأثناء وجود حملة نابليون في مصر شكوا مؤرخنا العظيم عبد الرحمن الجبرقي من كثرة وقوع حوادث المرور بالقاهرة!

كان هذا قبل عصر العربات؛ لأن الطرقات كانت ضيقة متعرجة، وكان الجمل الموسوق بالتبن مثلاً يشغل عرض الطريق كله. وكان بقايا الممالك والأتراك والجراكسة يركضون بجيادهم السريعة عبر هذه الطرقات ويدهسون الكلاب والأطفال في طريقهم. ثم زاد الزحام عندما أصبح العساكر الفرنسيون يستأجرون الحمير ويبرطعون بها من باب التسلية، فوقع كثير من حوادث تصادم الدواب عند مفارق الطرق. الأمر الذي لفت نظر مؤرخنا المدقق فسجله في تاريخه!

* حمير نائب رئيس الوزراء:

في الربع الأخير من القرن العشرين اتهم وزير اقتصاد (وكان يحمل درجة الدكتوراه وبدرجة نائب رئيس وزراء) اتهم حمير مصر الصابرة المثابرة بأنها أحد أسباب الأزمة الاقتصادية!!

أوضح سيادته قائلاً: إن الفلاح من أجل خاطر الحمار يقطع مساحة من أرضه يزرعها برسياً لإطعامه!

كان هذا افتراءً على الحمير. فالفلاح له عقلية اقتصادية ممتازة، حتى ولو لم يكن من

حامل الدكتوراه هو يزرع البرسيم في الربيع لإطعام الحمير والأبقار والخراف والماعز والطيور، أي: من أجل زيادة الثروة الحيوانية والألبان، وهذا إثراء للدخل القومي.

كما أن البرسيم يقوي التربة ويريحها ولا يبقى طويلاً بالأرض.

كما أن الحمار هو أفضل وسيلة نقل عبر الأراضي الزراعية، لأنه يحتاج إلى ممر ضيق، مدق عرضه أقل من متر. ولو استبدله الفلاح بعربة نقل صغيرة لصار في حاجة إلى طريق عرضه خمسة أمتار، فإذا ضربنا هذا العرض في أطوال الطريق لشكلت مساحة مخيفة من الأفدنة ستفقدتها الأرض الزراعية، إضافةً إلى أن الحمار لا يلوث البيئة مثل عوادم السيارات وضجيجها. وفي النهاية عندما يطعن في العمر، تشتريه حدائق الحيوانات طعاماً لوحوشها من أسودٍ ونمورٍ وغيرها.

من يكون أكثر درايةً بالاقتصاد إذن: الفلاح وحماره أم سعادة الوزير وشهاداته؟

*** حمار الحكيم:**

قال حمار الحكيم «توما»:

- متى ينصف الزمان فأركب، فأنا جاهلٌ بسيط، أما صاحبي فجاهلٌ مركب!

قيل له:

- ما الفرق بين الجاهل البسيط والجاهل المركب؟

قال:

- الجاهل البسيط هو من يعلم أنه جاهل، أما الجاهل المركب فهو من يجهل أنه

جاهل!

هذا الحمار اللبيب يشكو من جهل صاحبه، وصاحبه ليس شخصاً عادياً مثلنا،

وإنما حكيم. يعني أن حضرة الحمار أكثر علماً ودراية من مالكة الحكيم توما!

عموماً، فإن كل حمارٍ حرٍ في رأيه، ولا يوجد في جميع دساتير العالم بندٌ يمنع الحمير من حرية التعبير!

هذه الشكوى اقتبسها أدينا توفيق الحكيم من حكاية قديمة، ووضعها في صدر روايته الظرفية «حمار الحكيم» نسبةً إلى لقبه هو، وليس الحكيم توما.

في هذه الرواية يتورط شخصياً في شراء حمارٍ صغير بخمسين قرشاً (من فلوس زمان). في الوقت نفسه تكون إحدى شركات الإنتاج السينمائي قد اشترت منه روايةً لتحويلها إلى فيلم، وإذا رجال الدعاية يصورونه مع الحمار الصغير على سبيل الدعاية، فما أجملها من دعاية: «ل مؤلف» لا يهبط عليه الوحي إلا من حمار!

هذه الرواية نشرت عام ١٩٤٠، وكان هو حتى زمن كتابتها (١٩٣٩) صامداً مضرباً عن الزواج. يشرح لصديق له سبب هذا الإضراب بأسلوبه الفكاهي قائلاً:

- أنا مثل واحد من تلك الحمير الوحشية ذات النقوش الطبيعية السوداء والبيضاء ... والتي لا تطيق أن يمس رؤوسها لجام، ذلك أنها خلقت لتمرح في الغابات وتعيش في الطبيعة المتوحشة.

ثم يتراجع قليلاً:

- معجزةٌ واحدة تستطيع أن تجعل من هذه الحمر الوحشية مخلوقات طيبة هادئة نافعة، أن تجد غادة فاتنة في يدها سوطاً من حرير وتروضها في صبر. يعترض الصديق:

- يا أخي لا تعقد المسائل، حمار وحشي أو حمار حساوي، كلهم حمير تزوجوا وعاشوا، وخلفوا صبيان وبنات ... الزواج شيء مكتوب علينا جميعاً. يزداد تراجع الحكيم:

- إن أمني في الزواج يظل ضعيفاً، حتى أجد المرأة المصرية التي تستطيع ترويضني.

فيما بعد عثر كاتبنا على الغادة الفاتنة التي في يدها سوطٌ من حرير، والتي صبرت عليه وروضته وأنجبت له ابنه إسماعيل، الذي شب وصار عازفاً موسيقياً. ثم كان غدر الزمان، في عامٍ واحدٍ فقدته وفقدوها، وسبحان من له الدوام وحده. وصار في شيخوخته حزيناً، يقاسي الوحدة إلى أن لحق بهما، وأكثر من مرة دخلتُ عليه غرفته بجريدة «الأهرام» فوجدت الدموع تملأ عينيه.

* حديث حمارة:

قبل رحيله بسنوات، اختار أن يسجل آراءه في النساء والرجال وأهل السياسة في حواراتٍ طريفة مع حماره. وكان قد أنطقه قبل ذلك بلغة البشر عام ١٩٤٠.

لماذا مع الحمار؟

أجابني:

- كي يحميني. فإذا أغضبت الآراء أحد الناس وجاء يحتج قلت له: إن هذه ليست آرائي، إنها آراء حمار، فهل تعمل عقلك بعقل حمارٍ سليط اللسان؟

شاء خيال المبدع الرائد أن يصطحب حماره ذات صيفٍ إلى مصيف رأس البر، وبينهما هما على رمال الشاطئ، رأى المؤلف صديقاً له بديناً يقترب، فرحب به مداعباً:

- يا لك من رشيق! يا لها من رشاقة!

رأى الحمار أن الصديق له جسمٌ قد ترهل وكرشٌ قد برز كأنه فنتاس، فهمس في أذن الحكيم متسائلاً إن كان حقاً يرى صاحبه الفنتاس رشيقاً؟!

قال المؤلف في عناد:

- نعم.

- لماذا لا أرى أنا ما تراه أنت؟!

- لأنك حمار.

- ولماذا لا تقول لأنك منافق؟!

- هذه مجاملة.

رد الحمار المشاكس:

- المجاملة هي النفاق الصغير .. إنني تأملت نفسي ذات يوم وتأملتك وقلت: ما الفرق بينا معشر الحمير وبينكم معشر آدميين؟ نحن نأكل الفول وأنتم تأكلونه، نحن نحبه ممزوجاً بالتبن وأنتم تحبونه بالزيت، وتلك مسألة مزاج فقط. الفرق الأساسي بيننا وبينكم أنكم تعرفون النفاق ونحن لا نعرفه. لو أمكننا إدخال النفاق في فصيلة الحمير لانقلبنا مخلوقات مثلكم، سمعت أن النفاق له قيمة كبيرة في أسواق العالم، وأن أجود أنواعه يوجد هنا في مصر، إنني أرى سياسيين منكم قد خُلق لكل منهم وجه واحد، فصنعوا هم لأنفسهم وجوهاً جديدة .. ومجتمعكم يشتمز من اللص والاثم والفاجر، ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من هؤلاء، ونال سلطة أو أصاب ثروة فسرعان ما يبتسم له الجميع أيضاً!

يندهش الحكيم من صاحبه الحمار:

- النفاق ببساطة يا حمار: ألا تنظر إلى الآخرين بعين رأسك، وإنما بعين مصلحتك.

*** الحمار يتفوق:**

تعلم الحمار النفاق وتفوق فيه على أستاذه، واختفى من حياة توفيق الحكيم. فاضطر إلى إجراء حواراته مع عصاه، التي امتدح وفاءها قائلاً: «إنها ليست مثل حماري الذي تركني وجرى إلى ميدان السياسة وانغمر فيها، فلم يعد في مقدوري العثور عليه أو تمييزه من بين السياسيين».

راح يحاور عصاه ويرفعها متوعداً بها هذه الأنواع من الحمير التي تتنكر في ثياب الرجال والنساء وتضع على وجوهها أقنعة النفاق والزيف!

* مدرسة الحمير:

إذا كان توفيق الحكيم استخدم الحمار كأداة فنية، نقل من خلاله بعض آرائه، فإن يحيى حقي كتب عن هذا الكائن بتعاطف ومودة. حمير الحكيم حميرٌ ذهنية تتناقش في السياسة والفن والحياة. أما حمير حقي فهي حمير لحم ودم، لها وجهات نظرها الخاصة، وتذهب إلى المدارس!

وكلُّ من الحكيم وحقي عمل في وظيفة معاون نيابة الأرياف، التي أمدتهما بفيض إبداعٍ رائع. كتب الحكيم «يوميات نائب في الأرياف»، وكتب حقي «دماء وطين» وفصلاً بديعاً من كتاب «خليها على الله» اسمه «وجدت سعادتي مع أصدقائي الحمير»!

* حمير القاهرة:

ولأنه من مواليد وسكان حي السيدة زينب، فقد عاصر وهو صبيٍّ أواخر عصر الحمير الذهبي بالقاهرة. في ذلك الزمان كانت الحمير تشتغل بالنقل .. إذا كانت ملكية خاصة فهي مثل السيارات الخاصة الآن، وإذا كانت للإيجار فهي مثل التاكسيات!

وكان في شوارع القاهرة وميادينها لافتات مثبتة على أعمدة مكتوب عليها: «موقفٌ لثلاثة حمير» أو أربعة أو خمسة، حسب اشتداد حركة النقل في هذا المكان، «الآن يترك الناس سياراتهم في أي مكان وفي فوضى بالغة».

يحدثنا حقي عن الحمير القاهرية الأرستقراطية، التي يمتطيها رجالٌ من أولاد البلد المتدثرين بالشيلان الكشمير. كانت حميراً فارهةً قوية، شعرها مقصوصٌ في رسومٍ زخرفية، وعلاوةً على البردعة الفخمة، كان الحمار يتحلى برشمة (حلية) فضية براقة تهتز فوق

صدره. وعندما يجلس ابن البلد على المقهى، كان يدخن الجوزة وينفخ الدخان إلى خشم الحمار كي يتكيف مثله. وكان لبعض الحمير أحجبةً تقيها من شر العين (الآن يكتب الناس على السيارات: يا ناس يا شر، كفاية قر).

* حمير فنانة:

أكثر الحمير ذكاءً وخفةً ظل كان حمار السيرك، وهو سلالَةٌ متطورةٌ من حمار الحاوي الذي كان يدخل حارة الميضة حيث سكنت أسرة حقي، فيلتفُّ الناس من حوله. فإذا قال له صاحبه:

- اختر لك عروسة!

دار الحمار دورةً كاملة، ثم توقف أمام فتاة جميلة ورفض التحرك. والغريب أن الفتاة كانت تحجل وتسرع لهذه الشهادة رغم أنها من حمار.

وفي الأرياف شاهد السيرك الريفي الفقير الذي كان يطوف بالقرى. ولأنه معاون نيابة فقد كان يجلس في «بنوار» كتب عليه «بوليص» إعلاناً أن شاغله - مع الاحترام وحفظ المقام - قد دخل مجاناً سفلةقة.

* وجهة نظر:

يقول يحيى حقي: إن خفة وزن الحمار تعينه على هبوط الأخاديد وتسلق جوانبها، له حافرٌ دقيق، يشمم ويبصر المطبات، ويختار من بينها مسلكاً، فكأنها يمت للماعز بنسب. ينتظم في القافلة لا يربكها، ولا يقفز خوفاً من خياله مثل حصان الإسكندر الأكبر.

ثم يقول: إن الحمار «غلبان يبلع الإهانة. بخس الثمن نادر الاعتراض، لا يجز صاحبه إلى التركة. إذا طلب الاستحمام سار وحده وتمرغ في التراب. لم أر كالحمار حيواناً، تحس أنه أسقط في يده. أنه لم يقبل قدره من عمى وغفلة، بل عن بصيرة وفهم. أدرك قدرة ظالمه الإنسان، فقاده ذكاؤه العملي إلى الاقتناع بأن كل أمل له في التغيير قد

مات، وأن لا فائدة ترجى من التمرد أو العناد، فأحنى رأسه وأذنيه، واستسلم بلا قيد أو شرط».

للبقرة عين غارقة في أحلام اللذة، وللجمل عين ترقب الدنيا من غلٍ بته جس وغضبٍ مكتوم، كأنها يخشى أن تلحق بكبريائه إهانةً على يد إنسانٍ حقير. للحصاة عينٌ تنم عن الخيلاء والنبل والذكاء، تعكس الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحرة. وللجاموسة عينٌ منطفئة، لا تنبعث منها حياةٌ أو إرادة، إلا وهي ترضع طفلها فتشع حناناً.

أما الحمار، فإن عينه ذليلةٌ حزينة، تكاد تترقق فيها الدموع، تبدو أحياناً مغمّصة كعيون الأطفال بعد بكاء.

* الحمير درجات:

وفي دفاعه عن حمارٍ قزمٍ ماهر، يحذرنا حقي قصير القامة قائلاً: «إياك أن تستهتر بالأقزام في الحمير والناس».

والحمير في رأيه درجات، أدناها هو حمار السبخ، أي: الذي يحمل السبخ، غير مطلوبٍ منه أن يجري، لكنه يعاني الوحدة والضياع. الدرجة الثانية: كانت حمير الأجرة بالمحطة لا تعرف الراحة، وتأكل - بمقدار عملها لا بمقدار جوعها - ما يكاد يوضع في أول الطريق حتى يعلم إلى أين ينتهي، وتحس من مشيته وحدها ما إذا كان المشوار طويلاً أم قصيراً، ابنٌ سُوق، مستقلّ الشخصية. بعده يأتي حمار الفلاح أو ركوبته الخاصة، طيبٌ وديع القلب، فيه كثير من عبادة السذج؛ لأنه يعيش بين أحضان أسرة صاحبه كواحدٍ منهم، إذا خرج عن دائرته، بدا عليه شيءٌ من الحيرة. أما الحمار الأرستقراطي فكان ركوبة أصحاب الأطيان، أكحل العينين، وعلى ظهره بردعةٌ من جلدٍ ثمين، أو من قطيفة لها زينةٌ ولجام، وركائب، موفور الأكل قليل التعب، مرفوع الرأس راقص الخطو؛ لأنه ابن مدارس.

* مدرسة الحمير:

كان للحمير مدارس مختلطة فيها الذكور والإناث. من تلامذتها النجباء: الخيول، التي يطلب أصحابها أن تمشي مشية الرهوان، وهي مشيةٌ تحتاج إلى تعليمٍ طويل. ومن تلامذتها المحظوظين: الحمير الأرستقراطية، ويطلب منها الكف عن الفوضى، والاعتناء بأن المشي مثل الرقص له أصوله وقواعده، حتى يصبح الظهر كالبحر الهادئ، مريحاً عند الركوب.

ومدرسة الحمير لها قسم خارجي، وآخر داخلي. في الخارجي يتعلم تلاميذ الجيران، يأتي الرجل بالتلميذ (الحمار) كل صباح، ثم يتسلمه عند المغرب .. أما تلاميذ الداخلي فهم يأتون من الأماكن البعيدة، ومع كل واحد زاده وزواده.

بعد انتهاء مدة الدراسة، يعود كل تلميذ إلى صاحبه وقد أصبح حماراً مطيعاً، ولكن؛ دون شهادة مطبوعة مختومة؛ لأن الحمار يمتاز عن الإنسان بعدم اهتمامه بالأوراق والأختام، وبعدم احتياجه إلى الدروس الخصوصية؛ لأنه يتعلم من أول مرة. أما كثرة التكرار فهي للشطار، من بعض فلذات أكبادنا.

* أنا وصديقي في حديثٍ عالمي:

كنت قد نشرت مقالاً عن «التاريخ العريق للحمير» وعن طبيعتهم وسماحتهم، امتدحت فيه كبر عقلهم، إزاء غلاسة البشر معهم.

وفي اليوم التالي مباشرة، استيقظت من نومي العميق مبكراً، على ضجيج صاحب .. وأنا أسكن بالطابق الأرضي بضاحية مصر الجديدة، ولشقتي شرفة جميلة مرتبة جداً، فخرجت إليها أستطلع سر الضجة، لأجد الشارع ممتلئاً عن آخره بعشرات الحمير، ما أن شاهدوني حتى اندفعوا في نهيقٍ حماسي مثل نهيق إعلانات التلفزيون، لكنه يقطر محبة واحتراماً وتبجيلاً لي .. ومع ذلك، لم أفهم قصدهم من هذا الاحتشاد.

طلبت منهم أن يختاروا حماراً واحداً يتحدث نيابةً عنهم، فانتخبوا زعيمهم ..
ودعوته إلى شقتي .. وقبل أن يدخل من الباب تنحنح وقال:

- يا ساتر:

فقلت له:

- تفضل .. لا يوجد حريمٌ بالشقة.

رد مندهشاً:

- أما زلت أعزبَ حتى الآن؟! سوف أزوجك من ابنة أخي الجميلة المهذبة!

شكرته في أدب، سألته عن سبب تجمهرهم؟!!

بعد ثلاث ساعاتٍ من الحوار الجاد والنقاش الخلاق، فهمت منه أنهم جاءوا

ليقولوا لي: شكراً!

قلت له:

- لا شكر على واجب بين الأصدقاء.

وقدمت له كوباً من عصير البرسيم الطازج.

* آراء على الهواء:

وأنا أودعه على باب الشقة، فوجئت بمندوبي محطات التلفزيون المحلية والعالمية

الفضائية وقد حضروا لتغطية أخبار هذه الزيارة الفذة، ومعهم الكاميرات والإضاءة

والمايكات (المايك: دلع ميكروفون).

سألت مذيعاً محطة « سي. إن. إن » الفضائية صديقي:

- ما رأيك في الأغاني الشبابية؟

- أنا مبسوط جداً من المطربين الشبابين، وأغانيهم الشبابية تطربنا، ونلجأ إليهم في إحياء حفلات الزفاف.

سؤال من المحطة الفضائية المصرية:

- ما رأيك في الحكومة الحالية؟

- أنا معجبٌ بها جداً.

سؤال من مذيعة بدينة:

- ما رأيك في التلفزيون تبعنا؟

- أحب فيه القائمة الثابتة، وأقصد قائمة الضيوف الدائمين في جميع البرامج، والذين يظهرون بثيابهم المكوية ووجوههم المغسولة وكلماتهم المعسولة، إنهم أذكاء مثلنا، يتحدثون عن الطب والفضاء والبطيخ، والصناعة والسينما والفسیخ، والموسيقى والعفاریت وتحضير الأرواح بالكمبيوتر. التقط أنفاسه ثم قال:

- إن ذكاء هؤلاء الضيوف الدائمين يكاد يرتفع إلى مستوى ذكائنا، وأنا لا أجاملهم!

* توافق:

سألته مندوبة القناة الفضائية «إن. بي. يو»:

- ما رأيك في الإرهاب؟

- الشعير أفضل.

- ما رأيك في ضرائب الحكومة؟

- البرسيم ألد.

- ما رأيك في غلاء الأسعار؟

- غلاء الأسعار ظاهرة عالمية.

- هذا كلام الحكومة !!

أجاب في زهو:

- أنا أقول الصدق، وكلامي كلام حمير .. ثم لماذا توجهون أسئلتكم لي وحدي

؟! .. لماذا لا تسألون صديقي الكاتب الكبير، الواقف إلى جوارتي؟! .. هل تظنون أنه عمود خرسانة؟!

فاستداروا يسألونني، وأنا أرد دون تردد، وأبدت إعجابي بالأغاني الشبابية وبرامج التلفزيون ونظافة الطرقات، وأشدت بالحكومة وضرائبها الباهظة.

قالت المذيعة البدينة:

- إجاباتك تطابق إجابات زعيم الحمير!

- لهذا، نحن أصدقاء.

وكان لطفاً من صديقي أن امتدحني قائلاً:

- صديقي هذا، هو العبقرى الوحيد في العالم الآن، ونحن نرشحه وزيراً!

بكل تواضع، هزرت رأسي موافقاً.

٢ - حماري قال لي^(١)

وهو مجموعة مقالات، وقد افتتح الكتاب بتعريف حماره لقرائه، بعنوان: (من

هو حماري...؟)، وذلك في خمس صفحات، من المهم إيرادها، وهي:

(١) توفيق الحكيم، دار مصر للطباعة، ١٩٢٤ م.

الحمار له في حياتي شأن ... إنه عندي كائنٌ مقدس، كما كان الجعران عند المصريين القدماء .. لقد عرفته منذ صغري في صورة جحش جميل، اشتراه لي أهلي بثلاثين قرشاً، وجعلوه لنزهتي في الريف ... وكانت له برذعةٌ صغيرة حمراء لا أنساها... وكنا خير رفيقين ... لا نفترق إلا للنوم ... فقد كان في مثل سني ... أي: في طور الطفولة من فصيلته، كما كنت أنا في طور الطفولة في جنسي.

على هذه الحال من المودة عشنا، حتى فرقت بيننا الأيام، فذهبت أنا إلى مدارس الحضر، وبقي هو في ريفه .. وعدت في الصيف بعد أعوام، فوجدت الحياة قد تنكرت له؛ فالبرذعة الحمراء قد نُزعت من فوق ظهره، وألقي بها في مكانٍ مهجور، ووضع مكانها «غبيط» يحمل فيه التراب والسماد والطين .. فدنوتُ منه، ومسحت رأسه المُعَفَّرَ بكفِّي، فنظر إلي نظرةً حزينة، وكأنه يقول لي:

- أرايت؟ ... لقد ذهبت الطفولة وولت أيام الهناء!

وحزّت تلك النظرة في قلبي، ونظرت إلى من حولي قائلاً:

- أما كنتم تستطيعون أن تجنبوه هذا العمل الشاق المهين ... وتجعلوه على الأقل للركوب! ...

وكانه فهم عني، فقد رفع رأسه نحوي، وكأنه يقول:

- لا فائدة! ... لا تُجهد نفسك معهم ... ما من أحدٍ غيرك يعرف لي قدراً! ..

ولم تستطع شفاعتي أن تغير شيئاً مما كتب عليه ... فتركته لمصيره ... ثم بلغت مرحلة الشباب، وفرغت من الدرس، واشتغلت بتأليف الروايات التمثيلية ... فلم يفتني أن أجعل من الحمار شخصيةً في رواية لي، فظهر على المسرح ولم أره للأسف! فقد كنت غادرت مصر وذهبت إلى أوروبا، فجاءتني، الأخبار بأن الحمار أدّى واجبه على أكمل وجه، وقام بدوره في الرواية على نحوٍ يستحق الإعجاب ... ولكنه نظر بعد ذلك

إلى جمهور المشاهدين نظرة عميقة، ثم فعل فعلةً غير لائقة لوّثت خشبة المسرح ... وخرج بين سخط الممثلين وهرج النظار والمتفرجين وقد بلغني أنه ضُرب عندئذ وطُرد وأُهين، ولو كنتُ أنا حاضراً، لدافعت عن ذلك المسكين.

وأغلب ظني أنه أدرك بغريزته أن الجمهور لم يفهم الرواية ... فناب عني في إنشمار احتقاره له، بالطريقة التي رآها مواتية.

ومضى نحو عشرين عاماً، فرأيت الجحش مرةً أخرى في شوارع القاهرة، واشترته بثلاثين أو خمسين قرشاً مرةً أخرى، ولكن هيهات ... لقد كان هو في طفولته، وأنا في كهولتي ... فلم يكن بيننا غير صمتٍ طويل انتهى بموته ... أترأه أدرك بسليقته أم أن أوان اللعب قد فات بالنسبة إليّ! ... فآثر أن يتركني سريعاً، قبل أن أستكشف بنفسي هذه الحقيقة فأحزن؟ ... لقد سميتُه «الفيلسوف» وقد علمني أشياء كثيرةً بمجرد صمته وارتفاعه عن لجج هذا البحر الخضم: بحر السخف الإنساني!...

ثم رأيت الحمار بعد ذلك في الريف، أثناء زيارة قصيرة في أحد الأعياد ... ذهبت للراحة بضعة أيام ... وقد خطر لي أن أصطاد السمك في جدولٍ غير بعيد، فسرت على أقدامي مع بعض الفلاحين يحملون لي عصا الصيد، وساء تقديري لقوة احتمالي للسير ... فقد شعرت بالجهد والتعب بعد مائة خطوة ... ولم يجدوا لي حيلةً غير وضعي على صهوة حمارٍ من حمير التراب كان يعمل في حقلٍ قريب ... ولم أر - والله - في حياتي أتعس ولا أشقى من ذلك الحمار ... كان الدم يقطر من ظهره؛ لثقل «الغبيط» وهزال جسمه، وبروز عظمه ... ولا أحد يرحم ... وكان يتضور من الجوع، ويمد بوزه إلى كل عودٍ أخضر يجده في الطريق، فلا يلقي غير اللكم ممن يقودونه، ولا يظفر بغير اللطم ... لقد كان ذلك الحمار ملكاً لبعض المستأجرين الفقراء من الفلاحين، الذين لا يملكون للحمير قوتاً ... ولا يدّخرون ما عندهم من «العليق» إلا للجاموسة والبقرة التي تدر اللبن ... أما الحمار، فهو في نظرهم لا يساوي أكله ... وهو يذكر عند المهمة العنيفة والعمل الشاق ... ولكنه ينسى

عند حلول الأكلة النظيفة، فعلى المسكين إذن أن يلتقط ما يصادف في طريقه من عشبٍ مهمل، أو ورق زرعٍ متروك ... وليتهم مع ذلك يدعونه يفعل، فهم يدفعونه في ظهره بالعصا كلما تباطأ قليلاً لالتقاط رزقه من الأرض بحجة أنه يتلصق ويتلاصق، ويتكاسل عن عمله المفروض، أما إذا حدثته نفسه اللعينة؛ فمال برقبته على حقلٍ للذرة، وفقد رشده وخرج عن وعيه، وهرب بأسنانه عوداً منها أو كوزاً دانياً؛ فهي الطامة التي لا تدانيها طامة ... فإن الصياح يعلو من كل جانب، ويهرع أصحاب الزراعة بالهراوات ينهالون بها على المسكين وهم يتصايحون: «حوشوا الحمار، نزل غيط الذرة».

ذلك هو الحمار الذي امتطيته ذلك العصر ... وقد وجدت مشيته أبطأ من مشيتي، ... ولكن فهمت السبب، فتركته يسير كما يشاء، ويلتقط ما يشاء ... ونهرت كل من أراد بالضرب حثه على الركض، بل لقد فعلت أكثر من ذلك؛ لقد تركته - وقد شعر لا شك بتسامح راكمه - يمد فمه إلى كوز ذرة دنا من طريقه ... وشرع الفلاحون في الصياح فأسكتهم في الحال بقولي:

- «اتركوه اتركوه».

فسكتوا مرغمين أما هو فقد طحن الكوز بأسنانه طحناً سمع له خشخشةً وبلع، فكان لحركة البلع في حلقة معمرة، وخيّل إليّ أنّي أرى الطعام يُحدث عنده لذة لم يحسها المسكين منذ أمدٍ طويل ... وسار بعد ذلك وكأن كل خطوة من خطواته تسبيحة حمد وشكر إلى أن بلغنا الجدول المقصود، فترجّلت، وأخذنا في الصيد، وأوصيتهم أن يتركوا الحمار يرعى الكلاً النابت على حافة الماء ... وشهد الله، لقد كانت ساعة لم ينعم بمثلها ... والله إذا أعطى فإنه يعطي أحياناً بغير حساب فقد تهيأ لذلك الحمار السعيد وقتئذٍ الماء والخضرة ... فأظفره الله بالباقي، أي: الوجه الحسن في صورة حمارة شابة كانت ترعى هي الأخرى مع بعض خرافٍ ونعاجٍ على مقربة منه ... فما راعني - وأنا مشغولٌ بصيدي - إلا صوتٌ من بين الفلاحين يصبح:

- حوشوا الحمار والحماره

فالتفتُ، فإذا المغازلة على أتمها بين الحبيبين ... فقلت:

- اتركوهما

فتركوهما حتى انفصل أحدهما عن الآخر

وفرغت أنا من صيدي، فركبت الحمار عائداً وهو يركض بي كالمرح، فقد أكل، وشرب، وتنزه، وغازل ... إنها لحظة من الهناء قد سرتني وأسعدني أي أتحتها له ... ولكن القدر قد جعله يدفع ثمنها غالياً ... فالمكتوب عليه الشقاء؛ ويجب أن يُحاسب على كل فرحةٍ تتسرب إليه خلصةً من يد القدر النائم ولم تمض بالفعل أيامٌ حتى سمعت أن ذلك الحمار قد نفق جوعاً، وسقط إعياءً وسط الحقل، رازحاً تحت أثقال ما يحمل من تراب ... فألقى الفلاحون بجثته في المصرف ... ولم يكلفوا أنفسهم حتى مؤونة دفنه، وضنوا عليه حتى بذلك التراب الذي قضى حياته التعسة كلها في حمله على ظهره ... فلما بلغني ذلك أمرتهم أن يتشلوا جثته من الماء في الحال وأن يدفنوه.

ولست أدري حتى هذه اللحظة أفعلوا أم سخرؤا وكذبوا علي وتغافلوا عنه حتى جرفه التيار ...

من بين هذه الحمير الأربعة: أين حماري الذي يحادثني وأحادثه؟ ... إنه ليس واحداً بالذات من بينها .. إنه جميعها. إنه هو كلها مجتمعةً في واحد، هو روح هذه الأربعة التي عرفت، إنه النوع بفصائله، والفصيلة بصفاتها ... إنه أي حمار، رأيته أو لم أره ... مهما تكن ظروفه ومصائره أي حمار من تلك الحمير التي أعرف أو لا أعرف هولي صديق ... أحبه وأحذب عليه، وأفهم ما يجول في خاطره ... وأنظر إلى عينيه وأصغي إليه، فيخيل إلي أن صمته الطويل قد انفرج عن حديثٍ مؤنس يدلي به إليّ، وأسئلة طريفة يلقيها عليّ

ثم ناقش معه مجموعة من القضايا السياسية والاجتماعية، في أسلوب ساخر وجريء غير هباب.

٣- حمار الحكيم^(١)

وهو رواية، ولتنقل فاتحة الرواية: (١١-١٨):

عرفته في يوم من أيام الصيف الماضي ... في قلب القاهرة ... وفي شارع من أفخم شوارعها ... كنت أسير في ذلك الصباح إلى حانوت حلاقي ... وكان الهواء حاراً ممزوجاً بنسيم لطيف ... وكان صدري منشرحاً، فقد صادفت وجهاً مليحاً، لغادة شقراء هبطت معي بكلبها في مصعد الفندق الذي اتخذته منزلاً، مشيت وأنا أكاد أصفر بفمي وأترنم. وأشرفت على حانوت الحلاق ... وإذا أنا أراه ... أرى ذلك الذي كُتِب لي أن يكون صديقي ... رأيتُه يخطر على الإفريز كأنه غزال، وفي عنقه الجميل رباطٌ أحمر وإلى جانبه صاحبه: رجل قرويٌّ من أجلاف الفلاحين ... ووقف المارة ينظرون إليه ويحدقون، وبجمال منظره ورشاقة خطاه يعجبون ... لقد كان صغير الحجم كأنه دمية ... أبيض كأنه قُذٌّ من رخام، بديع التكوين كأنه من صنع فنان ... وكان يمشي مطرقاً في إذعان، كأنها يقول لصاحبه: اذهب بي إلى حيث شئت، فكل ما في الأرض لا يستحق من رأسي عناء الالتفات.

ذلك هو «الجحش» الصغير، الذي استرعى أنظار الناس في ذلك الشارع الكبير ... ومنظر جحش في مثل هذا الحي كافٍ وحده لإلقاء العجب في النفوس ... ولكن هذا الجحش كان - ولا ريب - جميلاً في الجحوش ... فقد كانت عيون المارة تشع بالإعجاب به قبل العجب ... ووقفت به سيداتٌ إنجليزياتٌ داخلاتٌ محل «جروبي» فما تمالكن

(١) توفيق الحكيم، دار مصر للطباعة، ١٩٩٠ م.

أنفسهنّ من إظهار الحب له ... فلو أنه شيءٌ يحمل لما ترددن في اقتنائه وحمله، كما تقتنى الحلي وتحمل وكان صاحبه يريد بيعه فيما خيل إليّ ... فلقد سمعته يقول لمن أحاط به من مارة وباعةٍ صحفٍ وغلماّن ...

- بخمسين «قرش» ...

وكانت قدماي على الرغم مني تسيران بي مع الجمع المحيط بالجحش ... وكانت عيناي على الرغم مني لا تنحرفان عن النظر إلى هذا المخلوق الصغير الجميل، وإذا بفمي على الرغم مني ينطلق صائحا:

- بثلاثين «قرش».

فالتفت الجمع كله نحوي .. ودار لغطٌ وارتفع كلام. وإذا بي أرى رجلاً قد انبرى من بين الجمع، هو بائع صحفٍ يعرفني ويبيعني صحفه، قد تطوع للعمل باسمي، فجذب الجحش من يد صاحبه الفلاح الحريص، وصاح في وجهه:

- سيدنا البك أمر، أمره يمشي على رقبتنا! ..

فأطبق الفلاح يده على عنق الجحش وصاح:

- ثلاثين قرش! ... هو فرخة رومي! ..

- عيب يا جدع، إنت ترد على البك الكلام! ..

- والله ما أفرط فيه بأقل من أربع برايز! ..

وحمي الشد والجذب بين الرجلين ... حتى كاد ينخلع في أيديهما عنق الجحش المسكين ... وانتهى الأمر بانتصار سمساري المتطوع ... فقد صارت في يده البضاعة قسراً ... فالتفت إلي قائلاً:

- هات يا بك الثلاثين «قروش» .. فتردد البائع وتراخى، ولكنه أراد مع ذلك أن

يحتج قليلاً، فأغلق الرجل فمه بقبضته وصاح:

- اسكت لا «أخرشمك»! .. هات يا سيدنا البك الفلوس، واستلم الجحش مبارك عليك! .. بيعة حلال بنت حلال! ..

وتقدم نحوي ساحباً الحمار ليسلمني قياده الأحمر المتدلي من عنقه ... هنا ذهبت السكرة وجاءت الفكرة .. لقد تمت الصفقة من حيث لا أرجو في حقيقة الأمر ولا أنتظر .. فقد جرى كل شيء وأنا في شبه غيبوبة، فالثمن الذي حددته بثلاثين قرشاً إنما خرج من فمي دون تفكير أو تدبير ... رقم لفظ على سبيل الدعابة ... فإذا الهزل يصبح جداً .. ودخل الآن الجحش في ملكي وحيازني .. فما عساي أن أصنع به الآن وأنا داخل حانوت الحلاق؟ ... وأين أضعه ولا منزل لي غير حجرة وحمام في فندق معروف؟

وفوق هذا، فجيبني كان خلوا وقتئذ من مبلغ الثلاثين قرشاً .. فلم أكن أحمل ذلك الصباح غير ورقة مالية كان في عزمي استبدالها بنقود صغيرة، فأردت الرجوع في الصفقة ... فتعذر عليّ الأمر ... ولاحقني البائع والسمسار بالحمار ...

فقلت منزعجاً، وأنا أشير إلى حانوت الحلاق ...

- لكن ... أنا داخل أحلق ..

فأجاب بائع الصحف من الفور:

- تفضل حضرتك أحلق في أمان الله ... وأنا أقعد لك «بلاقافية» بالجحش على الباب في انتظارك! ..

فقلت متملماً حائراً:

- وحتى المبلغ ..

فعاجلني الرجل قائلاً:

- أنا أفك لحضرتك حالاً من عند الدخاخي ... وسد الرجلان في وجهي المسالك،

ولم يشفع لي عندهما قول ولا حجة ... ولم يُفد اعتذار ... ولزمني الحمار ... فأذعنت ...
وأشرت إليهما، فتبعاني به إلى حانوت الحلاق ... دخلت ... فقلت للحلاق أن يؤدي عني
الثلث من صندوقه ... فأداه ... وانصرف الفلاح، ووقف بائع الصحف على باب
الханوت بالجحش يطرد المجتمعين حوله من المارة والغلمان وأهل الفضول ... وأنا جالس
أفكر في الأمر، وما أنا صانعٌ بعد ذلك بهذا الحمال، والحلاق يلطخ ذقني بالصابون ويتغزل
في جمال الجحش ويشني على رزاقته، ويتحدث عما يلزم له من الغذاء والخدمة ... ويتنبأ بما
يتظره من مستقبلٍ باهر يوم يغدو كالفرس الأشهب ... وبقية زبائن الحانوت ينظرون إليَّ
وإلى كل هذا ويكتمون ضحكهم، ويخفون رؤوسهم ما خالجهم من أمري من ظنون، إلى
أن فرغت من الحلاقة فنهضت، ودفعت الورقة المالية إلى صاحب الحانوت، فأخذ ما له
عندي ... وخرجت فاستقبلني بائع الصحف .. وقدم لي زمام الجحش وهو يقول:

- أطلقه حضرتك يجري في الجنية !..

فقلت كالمخاطب نفسي:

- لو كانت الجنية موجودة لهانت المسألة ..

فقال الرجل:

- أطلقه على السطح، وإلا في «الحوش» مع - من غير مؤاخذه - الخرفان ..

فقلت وقد تخيلت مسكني في الفندق:

- وإن كنا نطلقه في الحمام ..

فقال الرجل فاغراً فاه:

- الحمام ..؟!

فلم أرد على اعتراضه واستغرابه، وقلت له آمراً:

- اسبقني به على لو كاندة «.....».

نعم، لقد فكرت في الأمر، فوجدت أن هذا الجحش الجميل ليس أهون قدراً ولا أقل ظرفاً من ذلك الكلب الذي رأيته اليوم في صحبة الفتاة الشقراء .. فما الضرر في أن يصحبني اليوم، فأنزله ضيفاً عليّ يقاسمني حجرتي حتى العصر؟ لقد كنت أزمع السفر عصر ذلك اليوم بالذات إلى ريفٍ قريب في مهمةٍ غريبة، يأتي بيانها عما قليل .. فليبق معي إذن، إلى أن أذهب به إلى الحقول فأطلقه حتى يرتع فيها ويمرح .. على أن ما شغل بالي هو أمر طعامه اليوم .. لقد كان الحلاق يتحدث فيما تحدث عن غذائه، أنه لن يطعم غير اللبن، فهو رضيعٌ فيما يرى، ابن يوم أو يومين، وقد انتزع من ثدي أمه انتزاعاً لبيع في شوارع القاهرة .. ولعل ذلك لعسرٍ وقع فيه صاحبه .. فالفلاح إذا جاع باع كل ما يمكن أن يباع .. من يدري؟ لعل الرضيع اليتيم هو آخر حلقةٍ في سلسلة شقاءٍ طويل .. ولم أسترسل في التأمل .. فقد تجمع حولنا الناس من جديد .. فأشرت إلى بائع الصحف أن يسرع بالجحش أمامي وأنا أتبعه عن كثب. فجذبه من رباطه الأحمر، فمشى المسكين مشيته الرزينة في إطراره وإذعانه، دون أن يُعنى بتبدل الصاحب وتغير المصير .. وجعلت أتأمل من بعيدٍ في مشيته .. إنها تشبه مشيتي أحياناً .. إذ يخيل إليّ في لحظات كأن رأسي قد ارتفع عن لجة الوجود المنظور إلى فضاء الوجود غير المنظور فأمر بالحياة مدعناً .. لا أحفل بمن معي ولا بمعرفة وجهتي ..

نعم، إن مشيتي كمشيته أحياناً، ونظراتي أحياناً كنظراته الجامدة، المشرفة على عالم ساكنٍ صافٍ مجهول، قد أغلقت دون الآدميين أبوابه السبعة المختومة بسبعة أختام .. اللهم اغفر لي هذا الغرور، إذ أرفع نفسي إلى مقام التشبه بهذا الكائن العجيب! ..

٤ - الحمير^(١)

وهو مسرحية يتكون محتواها من العنوانات التالية: (الحمار يفكر - الحمار يؤلف - سوق الحمير - حصحص الحبوب). ولننقل كلمة المؤلف: (١١-١٥):

إن نبض الحياة في أمة من الأمم، يشبه نبض الحياة في جسم من الأجسام. وهو الإحساس بالخير والشر، والوعي للصواب والخطأ. ولما كان مركز الإحساس والوعي في الجسم هو المخ، فإن هذا المركز في الأمة، هو المخ أيضاً. ومخ الأمة هو الفكر وأهل الفكر.

وعلى ذلك، فلا حياة لأمة إلا بإحساسها ووعيتها لما يحدث لها. ولقد كان إحساس مصر ووعيتها في مطلع هذا القرن وقبله، هو حاجتها إلى أن يكون لها صوت وإرادة في حكم نفسها، على الأقل في المجال الداخلي، ما دام الاحتلال البريطاني يشلها في المجال الخارجي. فكان أن ارتفع صوتها بمطالبة الخديوي بالدستور. وكان شباب الأمة وقتذاك كلما مر بهم موكب الخديوي هتفوا: «الدستور يا أفندينا». فلما سمع فيه رأي الشعب وتجلت فيه صور من التعبير عن وعيه لشؤونه ومشكلاته، بدأت تتضح معالم حياته وتشكل ملامح شخصيته. ولكن هذه الديموقراطية ما لبثت أن انحرفت عن مجراها الطبيعي، بالانقسامات الحزبية التي كانت تديرها وتثيرها الأيدي الخفية للسراي والسياسة البريطانية لإيجاد الفُرقة بين الأقلية والأغلبية. وفطن أهل الفكر الحر إلى ذلك الانحراف، وبدأت الكتابة فيه، وكتبْتُ أنا بالفعل «شجرة الحكم» تصويراً لانحراف الديموقراطية وتزييفها.

وجاءت الحرب العالمية الثانية، وظهر نوعٌ من الأثرىاء الجدد أطلق عليهم يومئذ «أثرىاء الحرب»، كما ظهرت في بلادنا أعراض الرأسمالية المستغلة التي كنا نسمع عن

(١) توفيق الحكيم، دار مصر للطباعة، ١٩٨٨ م.

أمراضها في الغرب. وأخذت موازين المجتمع تختل إلى حدٍّ شعرنا معه بضرورة التفكير في الاشتراكية وتوزيع الملكية والثروات توزيعاً عادلاً. واقترح بالفعل أحد أعضاء مجلس النواب في ذلك العهد تحديد الملكية الزراعية بمئة فدان، كما عرض أحد وزراء حرب الأغلبية على البرلمان مشروعاً برفع ضريبة الأتبان على كبار الملاك، ومشروعاً للضمان الاجتماعي، كما نشرت جريدة «المصري» لأحد هؤلاء الوزراء خطبةً جاء فيها تحييد للاشتراكية، مما جعل خصوم هذا الحزب يدسون له عند الملك فاروق بقولهم إنها دعوة للشيوعية ...

وظهر جلياً أن وعي الأمة الحي النابض لا بُدَّ أن يَهْبَّ ليدفع البلاد في اتجاه اشتراكي داخل إطار النظام الديمقراطي. إذ كان من المستبعد أن يتم ذلك عن طريق انقلاب عسكري؛ لأن الجيش هو القوة التي كان الملك فاروق يعتمد عليها باعتباره الرئيس الأعلى للجيش ...

فلما قام الجيش بهذا الانقلاب كانت دهشة للجميع، خاصة وأن جيش الاحتلال البريطاني كان مُرابطاً على مقربة من القاهرة، وكان من الممكن لدباباته وطائراته إجهاض حركة الجيش في دقائق. وعلم بعدئذ أن أمريكا تدخلت لتأييد حركة الجيش المصري ضد فاروق، وشلَّت يد بريطانيا واختلقت الأسباب في موقف أمريكا. وفسر - فيما فسر - بأنه خوفها من الاتجاه الاشتراكي عن طريق شعبي لا يمكن السيطرة عليه فيؤدي إلى الشيوعية، ولا بأس عندها من اشتراكية محكومة بقبضة جيش ...

مهما يكن من أمر فقد قامت حركة الجيش بعد طرد فاروق بإصدار القرارات لتحقيق الأمان التي سبق للأمة أن فكرت فيها وعملت لها. ورحبنا جميعاً بهذه الحركة. وأسميناها: «الحركة المباركة». ثم أطلق عليها وصف الثورة. وتعلقت الآمال بثورة يولييه ١٩٥٢م. ونشطت هذه الثورة لمحاسبة العهد السابق ومحكمة رجاله، فأنشأت محاكم الثورة ولجان التطهير ونحو ذلك. ولم تُسفر هذه المحاكمات عن مخالفات جسيمة

عَرَّضت البلاد لخسائر ماحقة أو هزائم قاصمة. إلا أننا كنا نحن قبل الثورة قد اعتبرنا ما كان يحدث من انحرافٍ وتزييفٍ للديموقراطية أمراً لا يمكن السكوت عليه طويلاً، ولا بد له من التصحيح والتوجيه إلى الطريق الاشتراكي.

فلما جاءت ثورة يولييه ١٩٥٢م، ووضعنا فيها أملنا في هذا التصحيح والتوجيه. وجدنا أن هذا يحدث في إطار الحكم المطلق. ومع ذلك، رضينا بهذه الاشتراكية بدلاً عن الديموقراطية، أي: عن الحرية الليبرالية ...

ولكن مع مرور الوقت اتَّضح لنا - شيئاً فشيئاً - أن تطبيق الاشتراكية عندنا أصبح متماثلاً لتطبيق الديموقراطية، وأن ما وضعناه قبل الثورة من انحرافٍ وزيفٍ للديموقراطية بدأ يقابله انحرافٌ وزيفٌ للاشتراكية. إذ لا يمكن التطبيق السليم للاشتراكية مؤدياً إلى هذا المستوى الاجتماعي السيئ للشعب، وإلا كانت الاشتراكية نفسها مخيبةً لآمال الشعوب. وإذا كانت الديموقراطية عندنا قد انحرفت إلى نوعٍ من الانتهازية السياسية، فإن الاشتراكية عندنا قد انحرفت هي الأخرى إلى نوعٍ من اللصوصية والبيروقراطية.

لهذا كتبت هذه الصورة في كتاب «الحمير» التي قد تماثل من حيث التناول الفني الكاريكاتوري تلك الصور السابقة في كتاب «شجرة الحكم».

ولعلم أولئك الذين قد يسألون: لماذا لم تظهر هذه الصور كلها من كتاب «الحمير» في عهد سابق؟ أقول لهم مؤكداً: إنها أُرسلت بالفعل للنشر في جريدة «الأهرام» في ذلك العهد السابق أمام شهودٍ قُرئت عليهم، ولكن رئيس التحرير المسئول عن «الأهرام» وقتذاك وجد حرجاً شديداً في النشر، وحبس المسرحيتين الأولى والثانية، أي: «الحمار يفكر» و«الحمار يؤلف» حبساً طويلاً في مكتبه دون أن يرى من الممكن نشرهما على الإطلاق. إذن فالوعي قد وُجد، والقلم قد كتب، ولكن النشر قد مُنِع، وهذا ما لم يكن يحدث في مصر من قبل، فلقد نشرت صور «شجرة الحكم» بها فيها من سخريّة بحكامٍ في كراسي السلطة، دون أن يجروا أحداً منهم على منع النشر.

وبعد،

فما الذي يريده مثلي الآن من نشر هذا الكتاب؟

كل ما أريده هو أن يظل نبض الحياة في أمتنا قائماً بوظيفته الحيوية، ولا قيمة لحياة
بغير وعي. وكما أن الوعي عندنا قبل الثورة قد جعلنا نفحص الديمقراطية لتبين فيها
مواضع الزيف، كذلك يجب علينا - إذا كان نبض الحياة فينا لم يقف - أن نفحص
الاشتراكية لتبين فيها مواضع الزيف

وإذا كانت الاشتراكية عندنا قد انحرفت أو زُيِّفت كما انحرفت الديمقراطية من قبل
أو زُيِّفت. فلماذا قبلنا محاكمة الديمقراطية المنحرفة ولم نقبل فكرة المحاكمة للاشتراكية
المنحرفة؟ ..

وإذا كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ قد حاكت الديمقراطية المنحرفة؛ لأنها أدت إلى
هزيمة حرب ١٩٤٨، فلماذا لا تحاكم الاشتراكية المنحرفة التي أدت إلى هزيمة حرب
١٩٦٧؟

وشتان بين نتائج الهزيمتين وخسائر الهزيمتين!؟

من حسن الحظ أن جوهر شعبنا - على الدوام - سليم لم يمس، وأن معدنه نفيس.
والجوهر الخالد والمعدن النفيس ضد الزيف. وإنه ليتعين أن نبدأ صفحة جديدة تكون
فاصلة بين الزيف والصدق، وبين المرض والصحة. وكما أنه لا يمكن الدفاع عن الصحة
بالتستر على المرض، كذلك يجب الدفاع عن سلامة المستقبل بالكشف عن كل ما قبله.

والدوام لمصر،،،

٥ - تولب نافع^(١)

- حوار بين إنسان وحيوان: ولننقل منه مجريات الأسبوع السابع عشر (٢٦٩-٢٨٤):

(٢٨٤):

بعد أن حكم ملك الجان، وبغموضي لم يعجب نافعاً، عاوده القلق والحزن، لمصير حوار الإنس والمجيرّ بالتالي لمصير حوار مع الضيف المراوغ ... وقلق وحزن لطرح التولب لهجةً جديدة، وهي أن هناك فوارق حيوانية يتمنى البعض من البشر أنها آدمية.

تضجّر نافع مما يعانيه، فالحال تزداد سوءاً، وموازن المنطق تنقلب، فقال محدثاً

نفسه:

- لقد حاول التولب في حواراته السابقة أن يساوي بين البشر والحيوان، والآن ينشّن على التفوق الحيواني، إنّ ما يقوم به هو عين البهتان، فلا حول ولا قوة إلا بالله! ما هذه البلوى التي ابتليت بها؟ إنا لله وإنا إليه راجعون، كنت آتي بالفوارق فيرد علي التولب مُنطلقاً من مبدأ (الناقد بصير) سلاح به أطيح بطروحاتي.

تدارك خاطرته قائلاً:

- عفواً لم يهزمني التولب في أي حوارٍ دار بيننا، لكنه يختطف مني النصر بحرب عصابات لا قبّل لي بها، لم يجابهني، ولكنه بمبدأ (الناقد بصير) ينهك فكري، فيخرج متوهماً تفوّقه، مما جرّاه على أربابه وأسياده.

هنا برقت فكرة حواريةً جديدةً بأن تعيد الموازين لوضعها، فلاحت على حُيَّاه

الفرحة، فقال:

(١) صالح عبد الله العيري، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

- لماذا لا أكون أنا الناقد البصير؟ لم لا أستخدم سلاحه الذي أنهكني، خصوصاً وأنه في آخر لقاء عرض عليّ أن يأتي هو بالفوارق.

اطمأن نافع بمبدأ الحيطة، وحذر نفسه من مَغَبَّة قبول (طُعْم السمكة)، فلا موافقة لأي طرح، قائلاً لنفسه: إنه محاورٌ لا ترضية الموافقة على طروحاته، أذكر أنني وافقته في صدق الرجل الغربي، فرد علي: إنه تولبٌ لا يستحق التأييد في أي طرح من طروحاته. وجاء عصر الاثنين.

جلس نافع متحفزاً واثقاً من سلاح استخدمه التولب وانتصر، سلاح سَكَّت به نبرات نافع كثيراً، وأن الأوان أن يرد نافع الصاع صاعين .. سلاح سيعاد لصدر راميهِ. تفاؤل نافع أعطاه دفعةً من الثقة .. وما هي إلا دقائق وإذا بالضيف يدخل. تبادلوا التحية فجلسا، فقال نافع:

- في آخر لقاء لم يسعك الوقت لتتحدث عن فوارق تميزكم عنا، ولأثبت لك حلمي وشجاعتي أقول لك: هات ما عندك، وسترى علماً يفوق ما كنت تعرفه. قصد نافع بهذا التهويل إرباك الخصم، لكن التولب لم يأبه ولم يهتم بالتهويل، فقال التولب:

- كأنك واثق.

- الحمد لله.

- وهل معرفتك تفوق معرفة الحمار؟

- كن واضحاً يا تولب، فلا نريد رموزاً.

- حسناً طلبت ... في زمن ازدهار المكارية تظهر جماعة لصوص الحمير، ولهم

مهارات في إخفاء شكله السابق، فيباع بسوق الحمير، وربما يمر صاحبه فلا يعرفه، ربما

يتماس كرش صاحب بطن الحمار، دون أن يكتشف أنه حماره المسروق، هذه الظاهرة تحدث كثيراً في ذلك الزمن.

هزّ نافع كتفيه، وقال:

- وما ميزة الحيوان في ذلك؟ لا يعدو الأمر مهارة لص.

- ميزتنا أن الحمار هو الذي يعرف صاحبه، أما سمعت حكاية عبد العال محمود؟

- وما حكايته؟

- كان المزارع عبد العال محمود من قرية في مركز منفلوط بمصر يسير في ميدان باب الخلق، فاقترب منه حمارٌ يجرّ عربة، وسحبه من جلبابه، ثار الفلاح على الحمار، وتذكر الفلاح حماره المسروق منه من سنة مضت، وقد بحث عنه كثيراً ولكنه يش من العثور عليه، وأخذ يتفرّس فيه ويراجع تقاطيعه ومعالمه، مع اختفاء بعض معالمه، والحمار ماضٍ في التمسح بالفلاح، رغم سحب المكاري له، وأخيراً صاح الفلاح:

- إنه حماري، ولا شك عندي.

فتعالت أصواتهما كلّ يدعي ملكيته، فذهبا إلى مركز البوليس، وقرر المكاري أنه اشترى الحمار من سوق إمبابة العمومية بورقة مبايعة، وعند البحث عن البائع في عنوانه وجد أنه عنوان مزيف، وأصر الفلاح على أنه حماره، وقرر لو أن حضرة الضابط صاحبهم إلى قريته وترك الحمار خارجها طليقاً، فإنه سيذهب إلى بيته، واقتنع الضابط، فسافروا إلى القرية، وترك الحمار طليقاً، فتبعوه، فسار قُدماً إلى بيت الفلاح، ودخله مُجَلْجلاً بصوته. ثم أردف قائلاً:

- ومعرفتنا لا تخفى على القرويين الذين يدركون أننا ذوو ذاكرة قوية في معرفة

أصحابنا، بل ونحن أقدر منهم في معرفة الطريق والبلد، والمجال لا يتسع لذكر حكايات

التائهن الذين هديناهم السبيل، بعكس بعضكم الذين أحياناً لا يتعرفون على أنفسهم،
كحكاية الخواجة والفلاح
- وما حكايتهما؟

- قيل: إن خواجة وفلاحاً ذهبا يطحنان غلالهما، وكان المطحن مزدحمًا، وناما حتى
يأتي دورهما، فتناثر عليهما الدقيق فغطى وجهيهما، فأعجب منظرهما صبي الطحان،
فوضع عمامة الفلاح على رأس الخواجة، ووضع برنيطة الخواجة على رأس الفلاح،
وأيقظهما ليأخذا غلالهما، فذهب كلُّ منهما إلى منزله.

ولما دخل الفلاح إلى منزله، صرخت زوجته عند رؤيته، ودُهِش الرجل من صراخ
زوجته فقالت: إنك الخواجة، كيف تبيع لنفسك أن تدخل بيتنا؟ فقال لها: إنه زوجها
وليس الخواجة، ولكي تحسم الأمر جاءت امرأة، فلما رأى وجهه صاح ضارباً كفاً بكف
وقال: إن صبي الطحان أيقظ الخواجة وتركني.

- أتسخر يا تولب ..؟

- أنقل ذلك على ذمة عبد اللطيف بدوي الذي ذكر الحكاية في كتابه (حماري).
استهتار التولب جعل نافعاً يفقد توازنه النفسي، وبحركاتٍ انفعالية قال نافع وهو
يلوح بقبضته:

- لم أكن جاداً مثل اليوم، وأراك تستهتر، وما بقي إلا أن تقول: إن الحمار يقرأ
ويكتب.

ليس بالضبط وإن كان هناك علم (الحمرة).

جحظت عينا نافع للفظه (الحمرة) متسائلاً في نفسه: ترى ماذا ينبغي هذا النذل؟
وما هذا العلم؟ غير أن التولب قطع حيرة نافع بقوله:

لا أزعم كالbشر، وأعتبر الخيال حقيقة، فحكاية الشيخ سرحان وتعليمه للحمار
القراءة من باب الحيلة.

- إنني أجهل قصة الشيخ سرحان، فحبذا لو أوردتها.

- في بلاط الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي المعروف، خليطٌ من الشطار والنصابين، أراد أحدهم، والمسمى بالشيخ سرحان، أن يتفوق على الجميع ولو ببهارة مزيفة، وكان ينتهز الفرصة في أحد الأيام حيث دار الحديث عن المهارات، فقال الشيخ سرحان: عندي حمارٌ علمته القراءة.

دهش الملك وحاشيته، وطلبوا منه أن يعرض عليهم هذه المهارة في حفلٍ عام. وأمر الملك بإعداد مؤتمرٍ عامٍ في ساحة واسعة، وفي وسط الساحة وضع الشيخ سرحان مائدةً عاليةً عليها كتاب ضخّم، وأمام الجمع الكبير بدأ الحمار يقلب الكتاب الضخم، فتعجب المتفرجون كيف يقرأ الحمار!

مع أن الحمار في الحقيقة لا يقرأ، كل ما في الأمر أن الشيخ سرحان قد عوّد الحمار على التقاط الشعر الذي يضعه بين صفحات الكتاب، فكان الحمار يقلب الصفحة من أجل أكل حبات الشعر.

لم يفهم نافع المغزى من هذه الحكاية، فاستمر واضعاً ذقنه على راحته، فأردف التولب قائلاً:

- وأكثر كذباً من هذا الشيخ البيجرمي الذي قال للملك: أنا مستعد أن أعلم الحمار القراءة والكتابة، فقال الملك: وهل أنت جادٌ في عرضك؟ فقال الشيخ البيجرمي: إني جادٌ كل الجد ومستعدٌ لشرطٍ جزائي، وهو أن يأمر مولاي بضرب عنقي إذا لم أنفذ هذا الوعد. فأراد الشيخ سرحان أن يورط البيجرمي، فعرض على الملك عقد اتفاقٍ كتابي.

ووافق البيجرمي، وقدم إقراراً نصه: (يتعهد الشيخ البيجرمي لمولاه الحاكم أن يقوم بتعليم الحمار في مدة عشرين سنة القراءة والكتابة، وإن لم يفعل ذلك في نهاية المدة يكون للملك ضرب عنقه غير آثم ولا ظالم).

وأخذ الشيخ مقدم أتعاب التعليم.

فقدّم صديقٌ للشيخ وسأله: كيف يقبل على نفسه هذا التعهد؟ فقال الشيخ: لا تنس شرطي العشرين سنة، خلالها أموت فيها أو يموت الحمار أو الملك، أو يعقل الحاكم. وأكذب منهما الألماني الذي ادّعى أن حصانه يعرف الرياضيات، وأخيراً اكتشف العلماء أن لدى الحصان قوة إحساس، فعندما يطلب منه شخص نتيجة ٦ مع ٥ فإن الحصان يستمر يضرب بيده الأرض إلى أن تتغير ملامح الشخص، هنا يتوقف. نافع احتار في فهم محاوره، فعلى غير عادة التولب يأتي بأمثلة لا تدعم مواقفه في زعم التميز الحيواني، حيرة نافع ارتسمت على محياه ومن اهتزاز رجله، فقال التولب: - هل وصلت لحيرة (حمار بوريدان)؟

وكالموقظ من نوم، قال نافع:

- نعم.

حمار مشهور في أوروبا خلال القرون الوسطى، ظل حائراً حتى مات، وهو عندهم يمثل الحيرة، هل يأكل البرسيم أولاً أو يشرب الماء؟ فلم يستطع أن يتخذ قراراً، فنفق من الجوع والعطش، لا تكن يا نافع كحمار بوريدان تخاف التعقيب. وتحتار في سؤالٍ فتنفق من جهل.

-

ضاعت قدم نافع في مداخل الحديث فظل ساكناً، وهنا واصل التولب حديثه مذكراً نافعاً حديثهما السابق.

- حتى علم (الحمرة) الذي نسبتموه إلى بلاهة وغباء الحمار، نحن براءٌ منه.

زادت حيرة نافع، فما هذا العلم أولاً؟ وباستغراب قال:

- ما العلم الذي نسبناه إليكم؟

- هو علمٌ يتعلمه الفيلسوف فيتحول - بالتكرار - إلى حمار!

كتم نافع ابتسامته متذكراً الحكمة القائلة: (بالتكرار يتعلم الحمار)، لكن كلام التولب معكوس، هنا اختفت الابتسامة لظنه أن في الأمر مكيدة، فلم يطلب منه الإيضاح خوفاً من العقابة، لكن التولب أردف قائلاً:

- يقال: إن ملكاً طلب من وزيره أن يعلم الحمار ليفتخر به على حكام البلدان الأخرى، فانصاع الوزير للأمر وطلب مهلة خمس سنين.

فرح الملك وأخبر زوجته الملكة قائلاً لها: بعد خمس سنين سيكون عندنا حمارٌ متعلم، غير أن الملكة لم تفرح وقالت للملك: سأمحك الله أيها الملك الحكيم، أخطأت على غير عادتك، ليس من المصلحة العامة أن يتعلم الحمار، بل أن يتحمر الفيلسوف، فضرر الفلاسفة على العامة أمرٌ ظاهر.

وهنا قبل الملك نصيحة الملكة، يجب عليه أن يتحمر الفيلسوف، فاستدعى الوزير ليعلمه القرار الجديد، وقال له: أيها الوزير، يجب عليك أن تعلم الفلاسفة علم (الحرمة). احتار الوزير، كيف يحول الفيلسوف إلى حمار؟ وإلى أن يجد حلاً لهذه المعضلة سجن الوزير أحد الفلاسفة.

وبعد شهر ذهب الوزير إلى السجن، لعل الفيلسوف يبحث له عن حلٍ في تحويله إلى حمار، وعندما وصل إلى السجن وجد الفيلسوف قد تحول إلى حمار، فقد سمعه يردد: سبعة مع سبعة تساوي عشرين، فاستغرب الوزير، فسأل الحراس: ما الذي جرى للفيلسوف؟ قالوا: احتُجز معه تاجرٌ مفلس، وكان يهذي أن سبعة مع سبعة هي عشرون، ونتيجة التكرار، وعلى مر الليالي والأيام، تعلم الفيلسوف أن سبعة مع سبعة تساوي عشرين.

لم يفهم نافع المغزى من هذه الحكاية، أما الذي أغاظ نافعاً فهو فشل استراتيجيته، وهي: أن ينقد التولب حين يفتخر أو يتميز بفارقٍ ما، ودار بخاطره: لم لا يمكنني أن

أكون الناقد البصير، وهل تسأله عن التميز الذي كان يدعيه؟ وهل أنكر رواية علم الحمرة، فالرواية خيالية؟ أترى التولب يقصد بهذه الحكاية تقليص الفارق بيننا وبينهم في القضاء على منابرنا الفكرية؟ لا أدري بماذا أرد، وماذا أقول؟

دارت أسئلة متنافرة في عقل نافع عكست اضطرابه، ولم يستمر الصمت بين الاثنين، إذ قال التولب:

- علم الحمرة يثبت جهل فصيلتي؛ ولهذا أرفض نسبته، رغم أنه محض خيال، إلا أنه يرمز لواقع بشريٍّ مُعاش.

- تتهم قممنا في تجهيل فلاسفتنا؟

- قبل أن أرد عليك، قل لي: ماذا جنيتكم من فلاسفتكم؟ يشككون في العبادة ولا يهذبون العادة، يقلب الذات والماهية والجوهر ثم ماذا؟

الفيلسوف لم يزرع شبراً ولم يصنع تبراً، قلّ منهم من يقدم نظريةً تطبّق، أو يُحسن ما طبّق، أمثال جون لوك الذي ساهم فكره في أسس الدستور الأمريكي، وآدم سميث الذي ساهم في بناء مفاهيم العمل والرأسمالية، وماركس في صياغة المفاهيم الاشتراكية.

لقد اتفقوا على أن يطلقوا لفظ (ميتافيزيقيا) على ما وراء الطبيعة، فمنذ القدم لهم محاولات، فالفيلسوف طاليس يرى (أن العالم لا يمكن أن يكون مخلوقاً من العدم المحض) ولهذا افترض المادة الأولية لأصل الموجودات أن تكون مادة الماء، لكن الكسيمندر قال: إنها الهواء، فجاء فيثاغورس ففسر الوجود رياضياً فقال: إن العدد واحد أصل الكون، أما الفيلسوف بارمنيدس فقال: إن الوجود أزلي لا يتغير ولا يفنى، وما نحسه عبارة عن مظاهر وهمية؛ لأنها فانيةٌ والوجود خالد. ثم جاءت الفلسفة السوفسطائية، فقال أشهرهم (بروتاغوراس): إن الإنسان مقياس كل شيء، وبهذا فقد أنكر المعرفة بالعقل، ففند قوله وقول أضرابه وأتباعه الفيلسوف (سقراط)، بطرح نظرية المعرفة، وهي: أن معارفنا تنطوي

على إدراكاتٍ جزئيةٍ تأتينا عن طريق الحواس، وإدراكاتٍ كليةٍ عامةٍ ليس لها وجودٌ في الخارج. ثم جاءت الفلسفة الرواقية، فشكّوا بقدرة العقل على التمييز بين الحق والباطل، وقالوا: إن الحقيقة تعرف عن طريق الشعور، وبهذا ظهر مذهب الشك، وظهر الغلو الفلسفي، فأنكرت المبادئ العقلية الأولية، فزعموا أنها ما هي إلا فروضٌ غير مبرهنة، وقال البعض: إن المعرفة مستحيلة، فسخر منهم الآخرون وقالوا: كيف عرفتم أنها مستحيلة؟ فالمعرفة أنها مستحيلة معرفة. ولكل واحدٍ تلاميذ مضيفون، ومعارضون مسفهون إلى يومنا هذا.

تناول التولب كوباً، ثم تساءل وأجاب قائلاً:

- أتدري ما الذي يقتل جدوى البحث الفلسفي ميتافيزيقياً؟ وجود عقبتين، وهما: الخلق من العدم، وسيطرة الحواس، يعترف الفيلسوف هنري برغسون بهذه السيطرة فيقول: إن جزءاً من عقولنا نشأ لكي يمارس إدراك الأجسام المادية، فاكسب من هذا المحيط المادي أكثر تصوراتهِ.

ويؤكد الفيلسوف اكنوفنس استحالة (الميتافيزيقا) بالطرق الفلسفية بقوله: ما من إنسانٍ يستطيع أن يعرف الله معرفةً دقيقة، حتى لو شاءت المصادفة لإنسانٍ أن يقول في وصف الله الحق كل الحق، فهو في نفسه لن يعرف أنه يقول الحق.

بما أنكم أيها الفلاسفة عاجزون عن إدراك الذات العليا، فلم تُصدّعون رؤوس قارئكم؟ ألا يسعكم ما وسع غيركم من تلقي ما وراء الطبيعة من رسل الحق؟

وهناك من يرى غربة الفلسفة مع الزمن، يقول جونز: «إذا كان القول: إن الفلسفة القديمة اليونانية قد أزيحت بالاكشاف المسيحي لله، فإنه ليصح كذلك القول: إن الفلسفة الوسيطة قد أزيحت باكتشاف العلماء للطبيعة».

للفيلسوف تعريفٌ لأحد الظرفاء.. تعريفٌ ينطبق على التخبط النظري والحسي

كمقاييس فكرية قاصرة عن الوصول إلى الحقائق بطرق غير مؤدبة. يقول التعريف: الفيلسوف رجلٌ أعمى يبحث في غرفة مظلمة عن قطة سوداء لا وجود لها.

- يظهر لي أنك تغار من وجود فكر فلسفيٍّ يميز بني آدم.

- أيسرفكم خيالٌ في تعريف الفلسفة يقول: «هي البحث الخاص عن الحقيقة المجردة»؟ وهذا التعريف نظري أكثر منه واقعياً، إذ لا توجد حقيقةً مجردة، بل توجد حاجاتٌ ومطالب وأهداف وبواعث، هذه فلسفتكم، سبق واستعرضنا سلبيات فلاسفتكم في المجتمع، ثم عرفناها «كاريكاتيراً» وعلمياً تمتُّ للخيال بصلة، واستعرضنا النظريات القديمة والتي هي أسس للنظريات الفلسفية الحديثة، فوجدناها عاجزةً قاصرة، فممن أغار؟

لقد وجد نافع مجالاً لبصيرته التي أبطل مفعولها التولب، فقال مُثَبِّتاً وجوده الحوارى، ناسياً حذره من (طعم السمكة):

- أنا معك، فالفلسفة أولى أن تسمى (سفسطة)، وللملك الحق في تحمير الفلاسفة.

- لكنني لست معك، لا تجعل جهلك يحدد أعداءك، فالفلسفة الحقنة تلتقي مع الإيمان، وجل بحثهم من أجل الإيمان، ولكن التيمم يَبْطُلُ إن وُجد الماء، فرسل الحق - من نوح حتى محمد عليه السلام - قالوا كلمات الحق عن الحق.

الفلسفة بحرٌ عميق وشاطئه المقابل بعيد، من يخوضه يُصاب بدوار، يندر من يصل سالماً، ويتبلل من يرجع نادماً.

قال أبو بكر ابن العربي، تلميذ الفيلسوف الغزالي: أبو حامد بلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم فما استطاع.

فقال نافع بسرّه: أنا الذي لم استطع مجازاة محاورتك أيها النذل، كأنك تعلم أيها

التولب بخطة (الناقد بصير) فأوردت هذا البحر الذي أصابني بالدوار، وبحركة لا شعورية ضرب نافع كفاً بكف، فقال التولب:

- لم يعجبك قول التلميذ أو لم يعجبك رجوع الفيلسوف؟

- أفكر في علم الحمرة ومصلحة القمة في ذلك.

- ما تزال غير نافع في فك الرموز.

أحمر وجه نافع، لكنه تمالك نفسه وظل صامتاً، فقال التولب:

- أنتم بشر متحمرون من القاعدة أساساً، وذلك في مصلحتكم، وإلا فمن يتولى

المهن المتواضعة؟ فلو حولتكم قممكم إلى فلاسفة، فمن يا ترى ينظف الأحياء، من يسبك الماء، من يدهن بالطلاء؟

- علم الحمرة يا نافع ليس علماً يدرس، لكنه واقعٌ بشري نصينا منه الاسم، وقممكم تنادي بالتوازن المهني، فتطالب بشرها لملء الشواغر العلمية، فيتصائمون وينصبون على الأكاديميات النظرية غير المرغوبة ... قممكم لا تحمركم؛ لأنكم متحمرون بدوافع ذاتية، تقصر عقول بعضكم عن استطلاع النتائج المستقبلية، فالشباب الذي يقتات الكسل والتواني، هل يستلم قوت رجولته إلا حنظلاً وأمانى، قصر عقله عن الاستطلاع المستقبلي سلّمه شهادةً حنظلية.

شيءٌ محزونٌ أن تُتَّهم بالبلادة والغباء، والإنسان يفوقنا في علم الحمرة.

أدرك نافع مغزى التولب مما جعله ينفلت من طوره فقال:

- أتقصد بهذا العلم تفوقكم؟ لا أستبعد أن تسول لك نفسك، وتدعي الذكاء.

- ذكّرني يا نافع بمؤتمر الحمير.

وباستغرابٍ تساءل نافع:

- مؤتمرٌ للحمير!

- نعم، عقد الحمير مؤتمراً للنظر في تمادي ظلم الإنسان على الحمار، وتداول المؤتمرون جدول الأعمال، وخرجوا بنتائج منها:

أن القرويين يعترفون بذكاء الحمار، وأن المتحضرين جهلة، فنادت أصوات من المؤتمرين بالاتصال بهؤلاء الجهلة ليعلموا ويكفوا عن تجريح شعور الحمير، واعترضت أصوات أخرى فلا فائدة ترجى من بشرٍ واقعهم حمرة.
غضب نافع، فنعكس غضبه من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ فقال:
- أتصوتون مثل البشر؟ إن أنكر الأصوات..

سكت نافع مكتفياً بهذا اللمز، فقال التولب:

- لن أدافع عن صوتنا المنكر من خلال الذين يعشقوننا كالشاعر ابن عنين الذي قال قصيدة يرثي بها حماراً، ومنها:

يرجع النهق مقروناً ويطربني لحناً كما يطرب المزموم والرمل

ولن أدافع عن صوتنا المنكر من خلال الذين يستظفوننا، كالأديب حمزة شحاتة الذي يقول: (وقد يخطر لحمار أن يرفع عقيرته مغنياً؛ ليطرب أمثاله من الحمير، فيضحك الناس ويمطرونه وابلاً من الشتائم والازدراء، وفي هذا حجرٌ لا شك فيه على الحرية الشخصية، كان من الواجب أن يتنزه عنه الإنسان تسامياً بذوقه، وماذا يبقى للحمار إن حُرِم من استعمال هذا الحق؟) ثم يقول الأديب: (والناس أليس فيهم من إذا قيس صوت الحمار بصوته كان أخسر القرينين وأخلاههما يداً من أدلة الفوز؟).

ولن أدافع من خلال المقارنة بين النشاز من أغانيكم وبين صوت الحمار، فمن أغانيكم ما لو قارنت نشازَ لحنها أو نشازَ كلماتها لفضلت عليها نهيق الحمار.

نعم يا نافع ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.. لا يختلف اثنان على ذلك، يلي الحمار في قوة الصوت نباح الكلب، لكن أتدري لماذا؟

أدرك نافع أن هناك تعليلاً ليس بصالحه فقال:

- ليس مهماً التعليل.

- لا يمنع أن ألغي شيئاً من جهلك فأقول: الحمار والكلب قدما للبشرية خدعت

جليلة. يقول ابن كلاس:

من سب كلباً أو حماراً يا ليتني لم أسمعهُ
الكلبُ يحفظُ سيِّدَهُ أما الحمارُ فينفَعُهُ

وبالمقابل نالا الكثير من الإهانة والتجريح والشتم، مما جعلهما يعبران بصوتٍ مرتفعٍ احتجاجاً، وهناك دولٌ في العالم الثالث والرابع تُهان وتثقل بالديون ويبيع تبرها بسعر التراب، ومع هذا لا صوت لها، ولو صوتت لأُتكر صوتها، ويقول: (الحمار الميت).

قاطعته نافع مستغرباً ومستاءً من استهتار التولب الذي لم يكتفِ بكلام حمارٍ حي حتى يورد كلام الموتى، فقال نافع:

- ميت!

- نعم، يقول: (الحمار الميت) في الرسالة الثالثة عشرة للكاتب عزيز نسين: هناك

الكثير من البشر يصيحون ويولولون ولا أحد يسمعهم؛ لأنهم غير معروفين إن كانوا أحياء أم أمواتاً، ولا يفرقونهم عنا، ولا يُحسبون على معشر البشر في تلك الدنيا المظلمة إلا في الإحصاء.

ولهذا فنحن ..

قاطعته نافع، وقال بصوتٍ مرتفع:

- كفى مقارنة .. كفى مقارنة!

وبهدوءٍ قال التولب:

- ارتفاع صوتك يا نافع ينفي قبولك الإهانة تماماً كأنكر الأصوات التي تحتج، وضجتك هذه ذكّرتني في الضجة التي حصلت في المحاكمة الكبرى.

- وما هذه المحاكمة؟

- كتب يوسف السباعي حكاية (المحاكمة الكبرى)، وفيها ضجت الحيوانات لأن الثعلب في المحاكمة قال للإنسان (يا أخي)، ولم تسكت القاعة إلا عندما اعتذر الثعلب للحيوانات وتأسّف من لفظ كلمة (أخي).

- في هذه المحاكمة هل الإنسان متهم؟

- تساؤلٌك هذا يا نافع نفسه قاله الإنسان الذي هو في قفص الاتهام، فالقرد بين يدي الأسد رئيس المحكمة قال للإنسان وهو يدعو للمحاكمة: أنت متهم، فقال الإنسان: متهمٌ بماذا؟ قال القرد: متهمٌ كإنسان.

ندم نافع لاستثارة التولب عندما قال له: (إن أنكر الأصوات)، وعرف أن ضيفه الثقيل قال بلسان حاله: (فكلّك عوراتٍ وللناس ألسنٌ)، وخاف أن يرد فيفتح موضوع تعريف كلمة (إنسانية)، هنا قال نافع:

- أزفَ الوقت يا تولب.

فاستدار التولب للخروج قائلاً:

إلى اللقاء..

٦ - جحا وحميره^(١)٧ - جحا وحماره السمين^(٢)٨ - حمار الحكيم^(٣)٩ - خواطر حمار^(٤)

وهي مذكراتٌ فلسفية وأخلاقيةٌ على لسان حمار.

١٠ - حمار في المنفى^(٥)

من فصولها: مُكرهٌ أخاك لا حمار، دار الحمير المعذبة، اكتئاب حموري.

١١ - أخبار الحمير في الأدب العربي^(٦)

وهو كتابٌ مهمٌ في بابهِ، كدت أترك الاشتغال في الموضوع بسببه، غير أنه عزَّ علي جهدي، وحاولت أن أتجنب التكرار ما استطعت، كما لم أُمْنَع نفسي من الانتفاع به

(١) مكتبة العبيكان بالرياض، ١٤١٥هـ للأطفال.

(٢) مكتبة العبيكان، ١٤١٤هـ ط ١، للأطفال.

(٣) أحمد رضا حوحو.

(٤) تأليف: الكونتيسة دي سيفور، نقلها من الفرنسية إلى العربية حسين الجمل، دار ابن حزم، سنة ١٤٢٦هـ،

من فصوله: سباق الحمير، والحمار العالم.

(٥) روايةٌ للأديب أنس زاهد، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

(٦) بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

والإفادة منه، وما ستجده من بعض أوجه التشابه، جاء نتيجة اتحاد المراجع، وفيما عدا ذلك تميز كتابنا بسمته الخاصة، إذ حاولت فيه أن يكون ما كتبت به بعيداً عن التشابه، ونشأت فيه الاستقلال، فإن حصل التشابه مع هذا الحرص فلا ضير، إن تداخلت أصوات الحمير، وتحيةً مني صادقة لمؤلف هذا الكتاب الذي عاش مثلي قريباً من الحمير الأهلية والبشرية، وأغفل الحديث عن النوع الثالث من الحمير، وهو: الحمر الوحشية.

١٢ - حمار حمزة شحاتة^(١)

ولد الشاعر الكبير حمزة شحاتة سنة ١٣٢٨ هـ بمكة المكرمة، وتلقى تعليمه بمدرسة الفلاح بجدة، وتوفي بالقاهرة في ١٢ / ١٢ / ١٣٩٠ هـ.

١٣ - سلسلة مقالات قصيرة تحمل عنوان (حماريات)

كان يكتبها عزت الأمير على التوالي في جريدة «الأهرام» المصرية، مستعيراً لفظ الحمار للحالات السيئة التي تتقمص حمير البشر، ويرطعون في الساحات والميادين، وهو يعالج في مقالاته أدق التفاصيل لموضوعاته على لسان حماره دون خوف أو وجل.

ونختار منها مقالاً بعنوان (حتى البردعة .. صيني !!):

وجدت الحمار يمشي عريانياً بدون بردعة، ولما سألته عن السبب قال:

- هل أنتم عاجزون عن إنتاج مفتاح كهرباء بلاستيك؟

- طبعاً لا.

- وهل أنتم عاجزون عن إنتاج ولاعة بوتجاز؟

(١) دار المريخ، الرياض، عام ١٣٩٧ هـ (٩٣ صفحة).

- طبعاً لا .. ولكن ما علاقة هذا بأنك تمشي عرياناً بدون بردعة؟

- الحكاية وما فيها أني كلما ذهبت أشتري شيئاً وجدته صناعةً صينية ... فقلت لنفسي: يا حمار، الظاهر إنك سافرت الصين ومش واخذ بالك .. ولكنني دقت النظر في لافتات المحلات فوجدتها مكتوبةً باللغة العربية لا الصينية .. وكذلك دقت النظر في وجوه البائعين فوجدتها مصريةً لا صينية .. وعندئذٍ سألتهم: لماذا معظم السلع التي عندهم صينية وليست مصرية؟

- وماذا قالوا؟

- لم يقولوا شيئاً، بل نظروا إلي بطريقةٍ فهمت منها أنهم يستحرمونني ... وعندها شرحت لهم أن غمر الأسواق بالسلع الصينية التي يوجد لها مثيلٌ مصري يضر بالصناعة المصرية والاقتصاد المصري.

- وماذا قالوا؟

- لم يقولوا شيئاً، بل نظروا إلي بطريقةٍ فهمت منها أنهم يستحرمونني .. وعندها تذكرت ما نشرته «الوفد» ٢٧ نوفمبر، من أن الفارق بين قيمة الصادرات والواردات بلغ ٥, ١٦ مليار جنيه وواجهتهم بهذه الحقيقة، حتى يدركوا فداحة الأمر.

- وكالمعتاد نظروا إليك بطريقةٍ فهمت منها أنهم يستحرمونك.

- بل فهمت منها أنهم مجرد تجارٍ لا شأن لهم بالتصدير والاستيراد .. وعندها قلت لنفسي: يا حمار، إذا كان الأمر كذلك فلتبدأ بنفسك، ولتقاطع السلع غير المصرية .. ولأن بردعتي قد بليت تماماً فقد قررت أن أشتري غيرها بشرط .. وعندها دخت السبع دوخات دون أن أعثر على بردعةٍ مصرية، فقد أغرقت البرادع الصينية كل الأسواق .. وبصفتي حماراً صاحب مبدأ فضلت أن أمشي عرياناً بدون بردعة إلى حين العثور على بردعةٍ صناعةٍ مصرية.

- أحييك على هذا الموقف يا حمار.

- المهم أن تفعل مثلي وتخلع بنطلونك المصنوع في الصين وتمشي ...

وجاء الزبال؛ فسكت الحمار عن الكلام ..

١٤ - وفي جريدة «الشرق الأوسط، الثلاثاء ٣ / ٧ / ٢٠٠٠م» قصة قصيرة بعنوان: (حمار اللجنة) للقاص عبد الله محمد الناصر:

يُحكى أن رجلاً اشترى حماراً، فقيل له: إن حمارك هذا به غفلة، والغفلة تعتبر غباء، والغباء في الحميم عيبٌ مردود، وإن البائع قد غشك .. فذهب الرجل إلى القاضي شاكياً، واستدعى البائع ليتأكد من دعوى المشتري حول غباء الحمار .. فقال البائع: يا سيادة القاضي، إن خبرتي في الحميم لا تتعدى معرفة القوي منها أو الضعيف، وقدرته على التحمل، أما في ما يتعلق بقدراتها العقلية وفطنتها، فإنني - يشهد الله - من أشد الناس جهلاً بذلك، ولكنني سأترك الأمر لحكمته، وحكمك .. فقال القاضي: حسناً، سوف أنظر في الأمر وفكر القاضي في الأمر كثيراً ولكنه لم يهتد إلى مخرج، وأخيراً رأى أنه من الأفضل تشكيل لجنة لتعطي رأياً في الحمار!!

(ورفع الأمر إلى الجهات المختصة والتي بدورها شكلت لجنة لهذا الغرض) .. وفعلاً، ذهب ملف الحمار إلى اللجنة، حيث درست وضع الحمار دراسةً طويلة، وعقدت جلسات متعددة، وثار بين أعضاء اللجنة لغطٌ وجدلٌ طويل، وتعاقت الجلسات التي صرف عليها الكثير من المال والوقت .. ورأى رئيس اللجنة أنه من الضروري استدعاء «البائع» لأخذ أقواله، فاستحسنت اللجنة الرأي، وقد تم استدعاؤه، وسجلت أقواله حول سلالة الحمار وسلوكه، ورغباته، وتاريخ ميلاده .. لكن اللجنة رغم هذا لم تصل إلى رأي موحد، وظل الخلاف قائماً بين أعضائها!! وتعب المشتري من كثرة ما يقود حماره

إلى مقر اللجنة صباح مساء. وأخيراً، اتفقت اللجنة على رأي موحد استحسنه جميع الأعضاء، وهو: عرض الحمار على طبيب بيطري!!

ورفعت اللجنة محضراً بالرأي المقترح للجهة المسؤولة، والتي استحسنّت بدورها رأي اللجنة!!

لكن المشتري اعترض على ذلك مدعياً: أن رأي طبيب واحد قد لا يكون في صالحه، وطلب تشكيل لجنة من البيطرة لدراسة وضع الحمار، وفعلاً شُكِّلت لجنة من البيطرة المختصين، حيث تم فحص الحمار فحصاً مخبرياً، وأُخذت صوراً مقطعيةً لمخه، ورغم ذلك ثار جدلٌ طويل بين الأطباء البيطرة حول النتائج، واختلفوا اختلافاً بيناً في قراراتهم!!

ورأوا إعادة الفحوصات مرةً أخرى، فأعيدت ولكن الاختلاف ظل قائماً. وتسرب الخبر إلى وكالات الأنباء ووسائل الإعلام، فتسابقت الصحف في نشر الموضوع مع صور الحمار على صفحاتها الأولى، وصارت تنقل قصة الحمار وتتابعها أولاً بأول، فذاع الأمر وشاع بين الناس .. وانبرى كثيرٌ من الكُتّاب إلى الوقوف بجانب المشتري المسكين! وأبدوا معه تعاطفاً ظاهراً، وشنُّوا حملاتٍ مركزةً على ظاهرة الغش في بيع الحمير! بل اعتبروا أن الظاهرة في حد ذاتها نوعٌ من أنواع الفساد والخطر، وأن عواقبه ستكون وخيمةً على المجتمع وسلوكه!! فسوف تختل الأمانة وتهتز النزاهة، وتُفقد الثقة .. وقد لمع أحد الصحفيين الصغار الجدد وأثبت مقدرةً فائقةً في تغطية أخبار الحمار، فكوفئ على ذلك بأن عُيِّن مديراً لتحرير إحدى الصحف السيارة!!

أما عامة الناس، فقد انشغلوا بقضية الحمار، وما أُثير حولها من جدل، وراحوا يتابعون ويترقبون بلهفةٍ وحماسةٍ عما ستنتهي إليه؟ بل قضيتهم الأولى، وانقسم الناس إلى قسمين، بل موقفين: موقفٌ في جانب المشتري المغبون .. وموقفٌ إلى جانب البائع،

حيث يرون أنه لا ذنب له في غفلة الحمار! وبسبب الضجة الإعلامية فقد راجت الصحف، فصار من النادر أن تعثر على صحيفة بعد الساعة التاسعة صباحاً!! كما أن بعض القنوات الفضائية استضافت متخصصين وأجرت حواراتٍ مطولةً ونقاشاتٍ حادةً معهم حول عقليات الحمير!!

أما المثقفون فقد انهمكوا في قراءة ما كُتب عن الحمير قديماً وحديثاً، فقرأوا كتب التراث المعنية وبالذات كتاب «الحيوان» للجاحظ، أما رواية توفيق الحكيم «حمار الحكيم» فلم تبق منها نسخةٌ واحدة. بل إن الناس صاروا يصورونها ويبيعونها في السوق السوداء، وقد كتبت أيضاً قصائد حديثة حول قضية الحمار، ولكن لم يفهمها أحد!

أما المشتري المسكين فقد تعب كثيراً، ولحق به أذىٌ عظيم، حيث صار يحمل الحمار من مستشفى البهائم ثم يعيده إلى حظيرته كل يوم. واضطر للاقتراض من أجل نفقات الفحوصات، والغذاء، وأجور النقل اليومي .. وعندما أرهقه التعب ذهب إلى القاضي مستجيراً طالباً البحث عن حلٍّ لقضيته التي طالت وتعقدت، ورأى القاضي أنه من الأفضل أن تتدخل الشرطة، وفعلاً أحيلت إليها الأوراق كاملةً بما فيها تقارير اللجان، فاطّلت الشرطة على المحاضر والتقارير والآراء، ثم طلبت أن يُؤتى بالبائع مخفوراً، وحين داهمته الشرطة ارتبك وحاول أن يمتنع، غير أن الشرطي نهزه وقال: اركب يا حمار!! نظر إلى الشرطي وقال: أظن أن الحمار يا سيدي في حظيرة المشتري، فلو ذهبتم وأحضرتموه!! دفعه الشرطي بعنفٍ إلى صندوق السيارة، وحينما ضبط كل أقواله أفرج عنه. وبعد دراسةٍ مستفيضة، رفعت الأوراق إلى القاضي بمقتراحين أو رأيين لا ثالث لهما، أولهما: أن تُبعث التقارير الطبية إلى أحد المستشفيات المتخصصة في الغرب لمعرفة رأيها النهائي والقطعي في ذلك، على أن يسجن الجميع على ذمة القضية إلى أن تصل النتائج! أما ثانيهما: فأن يطلب القاضي من أحد الاثنين التنازل.. فسر القاضي وابتهج بذلك، وقال: هذا والله نِعَم الرأي.

طلب القاضي إحضار الخصمين للجلسة النهائية، وكانت الصحف قد علمت بذلك .. فاجتمعت حشودٌ من الصحفيين والمثقفين وعامة الناس عند باب المحكمة؛ انتظاراً للنتيجة.

وعندما جلس الخصمان أطلعهما القاضي على رأي لجنة الشرطة، وأنَّ عليهما أن يختارا أحد الأمرين ... وجم الاثنان قليلاً، وظل القاضي ينظر إليهما في لهفةٍ لسمع رأيهما، فرفع البائع رأسه إلى القاضي وقال: هل يمكن أن أرى حماري يا سيدي القاضي؟! قال القاضي: بكلِّ تأكيد، وأدخل الحمار فإذا به قد امتلأ صحةً وعافية، وازداد بياضاً، وصار أكثر حيويةً ونشاطاً .. وأخذ الحمار يُحدِّق في المكان والوجوه في طمأنينةٍ وثقة، يرفع أذناً ويرخي أخرى، وكأنه يستغرب وجوده في هذه القاعة التي تختلف عن حظيرته!! قال البائع: سيادة القاضي، إنني أقدر جهدكم وجهد اللجان الموقرة على كل ما بذلتموه وتبذلونه من أجل معرفة الحقيقة وتطبيق العدالة، وتقديراً مني لهذه الجهود العظيمة فإنني أقبل أن أستعيد حماري وأعيد المبلغ للمشتري .. تهلل وجه القاضي مستبشراً وقفز هو والمشتري وتعانقا فرحاً!

وحينما خرج صاحب الحمار يقود حماره وأطل من بوابة المحكمة، اشتعل بريق كاميرات التصوير وتعالى الهاتف والتهليل من الجماهير الغفيرة لعدالة الحكم، أما صاحب الحمار فقد همس في أذن حماره قائلاً: يا حماري العزيز، أرجو ألا تكون أيضاً أنت قد صدقت هذه «المسألة»؛ لأنني لا أزال أراك أذكى وأعقل فردٍ في هذه المدينة.



من أسماء الحمير

غير ما تقدم:

- ١- الأقدري: الحمار الوحشي، والخدري: الحمار الأسود.
- ٢- الأدلص: الحمار إذا نبت له شعر جديد.
- ٣- الأعرّ: الحمار السمين الصدر والعنق.
- ٤- الأشخم: الحمار الأسود الأنف، ويقال له أيضاً: الأدغم.
- ٥- البهّصل: الحمار الغليظ.
- ٦- التّاب: الحمار قد دبر ظهره وتقرح.
- ٧- التّلّو: الجحش الذي يتلو أمه ويتبعها.
- ٨- الجّاب: الحمار الغليظ، وهو من الحمر الوحشية.
- ٩- الجادر: حمار الوحش.
- ١٠- الجعمره: أن يجمع الحمار قوائمه وبطنه، ثم يحمل على الأتان ونحوها لكدمها أو عضّها.
- ١١- الجلعّد: الحمار القصير، والغليظ، ويقال له: الحلزاب.
- ١٢- الجلنّفق: الأتان السمينة.
- ١٣- الجّمّاز: الوثّاب، وهي صفة سيئة.

- ١٤- الحيدى: الذي يجيد عن ظله لوفرة نشاطه، فهي صفة مدح.
- ١٥- الخذوف: السمين من الأثن.
- ١٦- الدَّوبِل: الحمار الصغير.
- ١٧- الدَّيْدَب: حمار الوحش.
- ١٨- الدَّفِرُ: الحمار الصلب الشديد.
- ١٩- الزامل: الحمار الذي كأنه يطلع من نشاطه.
- ٢٠- الزَّمْلَق: السمين المستوي الظهر.
- ٢١- السَّحَاج: الحمار العضاض.
- ٢٢- السَّمْحَج، والسَّمْحَاج: الأتان الطويلة الظهر.
- ٢٣- الصَّنْدَل والصَّنَادِل: الحمار ضخيم رأسه وصلب.
- ٢٤- الصُّتْع: الحمار الصغير الرأس.
- ٢٥- الضمَّعج: الأتان الضخمة التامة.
- ٢٦- العانة: الأتان، والقطيع من حمر الوحش.
- ٢٧- السحاب: حمار الوحش، أوفتيه.
- ٢٨- العُضْرَس: حمار الوحش.
- ٢٩- الخذي: من ألقاب الحمير.
- ٣٠- الدَّموقة: الدوائس من البقر والحمير، والدوائس: التي يتبع بعضها بعضاً.
- ٣١- ذو النجمة: من أسماء الحمار.
- ٣٢- وحمار مسحج، معضض، ومثله المدر.

٣٣- الجورق: الحمار.

٣٤- الجنزاب: الحمار المقتدر الخالص، أو القصير القوي، أو العريض الغليظ.

٣٥- العفو: الجحش، والأثنى عفوة، والجمع أعفاء، وعفاء، وعفوة.

٣٦- العُسكوم: اسم الحمار بالحميرية. وكذا الكسعوم والكعسم.

٣٧- العُكموس والعَمكوس.

٣٨- العلج: حمار الوحش، وقد يراد منه الوحشي السمين القوي.

٣٩- العيثمي: حمار الوحش.

٤٠- العلجوم: الأتان الكثيرة اللحم، جمعها: علاجيم.

٤١- العَيْر: الحمار الوحشي والأهلي.

٤٢- العَيْذار: الحمار الأهلي.

٤٣- الفَرَأ، أو الفَرَاء: حمار الوحش أوفتيه، وكذا العَصْرَس، والنَّوص، والمِصَك، والمسحل، والفنان، والوزى.

٤٤- القلح: الحمار المسن، وكذا الفلح.

٤٥- القِلو: الفتى الخفيف.

٤٦- القَنْدل والقَنْادل، والقَنْدَوِيل: الحمار الصلب الطويل العظيم الرأس.

٤٧- القِنْفَج: الأتان العريضة السمينة.

٤٨- القَهْبَسَة: الأتان الغليظة.

٤٩- القَهْبَلَة: أتان الوحش الغليظة.

٥٠- القيصور: الحمار النشط.

- ٥١- الكُدْر: الحمار الغليظ.
- ٥٢- اللُّكْع: الجحش، والأنثى لُكْعَة.
- ٥٣- الكُنْدُر، والكُنَادِر، والكندور، والكندر: الحمار الغليظ.
- ٥٤- المجدّع: حمار مقطوع الأذنين.
- ٥٥- المِشَلّ: الحمار كثير الطرد.
- ٥٦- المُشَلَّل: الحمار الكثير العناية بآتته.
- ٥٧- المِشْحَل: من أسماء حمار الوحش.
- ٥٨- المضبوع: ما أكلته الضبع من الحمير.
- ٥٩- المعضض: حمار عضضته الحمر وكدمته.
- ٦٠- المُهْضَل: الحمار الغليظ.
- ٦١- المراغة: الأتان التي لا تمنع الفحل.
- ٦٢- المكراف: الحمار يشم بول أتانته، ثم يرفع رأسه ويقلب شفتيه.
- ٦٣- المَلَامِل: الحمار السريع.
- ٦٤- الناعل: حمار الوحش.
- ٦٥- النَّجُود: الأتان التي لا تحمل.
- ٦٦- النَّحْص: الأتان الوحشية الحائل، وكذا الناحص والنحوص.
- ٦٧- النهاز: الحمار الذي ينهز ب صدره للسير.
- ٦٨- الهبع: الحمار.

٦٩- الهمهيم: الحمار الذي يردد نهيقه في صدره.

٧٠- الهَنْبَر: الجحش، والهنبير.

٧١- القيهور - كقيصوم -: الحمار النشيط.

٧٢- الصلصل، والصلاصل، والصلصال، والمصلصل: الحمار المصوت.



أعلام حمارية

١- عبد الله بن جحش الأسدي:

حليف بني عبد شمس وأحد السابقين، أخى النبي ﷺ بينه وبين عاصم بن ثابت. وروى السراج من طريق زر بن حبیش قال: أول راية عُقِدَتْ في الإسلام لعبد الله بن جحش، ومن ألقابه: (العرجون)، وذلك أن سيفه انكسر يوم أحد، فأعطاه النبي ﷺ عرجوناً فصار في يده سيفاً. ودُفِنَ هو وحمزة في قبرٍ واحد، وكان له يوم قتل اثنتان وأربعون سنة^(١).

٢- عبد الله بن جحش، آخر:

وهو غير الأول، وكان أعمى، وفيه وفي ابن أم مكتوم نزل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَعْدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]^(٢).

٣- عياض بن حمار بن أبي حمار المجاشعي التميمي:

روى عنه الترمذي أنه أهدى إلى النبي ﷺ قبل أن يُسَلِّمَ، فلم يقبل منه^(٣).

٤- محمد بن عبد الله بن جحش الأسدي:

كان مولده قبل الهجرة إلى المدينة بخمس سنين.

(١) الإصابة (٤: ٣٥).

(٢) الإصابة (رقم ٤٥٨٧).

(٣) الإصابة (٤: ٧٥٢).

٥ - النمر بن تولب بن زهير العكلي:

قال المرزباني: كان شاعراً فصيحاً، وفد على النبي ﷺ، وكتب له النبي ﷺ كتاباً، وكان عمرو بن العلاء يسميه (الكيس)؛ لجودة شعره، وكثرة أمثاله، وعمّر طويلاً حتى أنكر عقله^(١).



(١) الإصابة (٨: ٨٨).

من الأمثال الحمارية

- ١ -

استثمر الكتاب عشرتهم للحمير ومعرفتهم لأحوالها فيما يكتبون، وتوسلوا بذلك للتعبير عن المعاني الدقيقة، والخلجات الشفافة، فضربوا بها الأمثال، وقد جمعتُ في هذا الباب ما أمكنني جمعه من الأمثال الفصيحة، ثم العامية، مما استحسنته، وقد جاءت بنيتها مختلفة الأشكال، وتراوحت بين الجملة الاسمية، والفعلية، وشبه الجملة، وأنصاف أبياتٍ شعرية، وهي قائمةٌ في عمومها على الإيجاز، مرتكزةٌ على التشبيه التمثيلي، إذ المثل لفظ يؤدي معنىً من المعاني بوساطة إلحاق المضرب بال مورد، وقد ضرب الله الأمثال في القرآن الكريم، كما استعملته الأحاديث النبوية الشريفة، وجاء في الشعر والنثر منذ العصر الجاهلي.

وفيما يلي مجموعةٌ من الأمثال الحمارية التي اقتضتها مواقف المبدعين. وربما كان علي أن أؤخر الحديث عن الأمثال إلى ما بعد استكمال الحديث عن أنواع الحمير، ولكن الحمر الأهلية هي الأبرز في حياتنا، سهلٌ لي عدم التقيّد بالترتيب، كما رأيت المزج بين الأنواع:

١- (العَيْرُ أَوْقَى لَدَمِهِ):

مورده: قال الميداني^(١): ويقال: هذا المثل لزرقاء اليمامة لما نظرت إلى الجيش، وكان كل فارسٍ منهم قد تناول غصناً من شجرةٍ يستتر به، فلما نظرت إليه قالت: لقد مشى

(١) الميداني (٢: ١٣).

الشجر، ولقد جاءتكم (حَمِيرٌ)، فكذبوها. ونظرت إلى عَيْرٍ قد نفر من الجيش، فقالت: (العَيْرُ أَوْقَى لَدَمِهِ، مِنْ رَاعٍ فِي غَنَمِهِ) فذهبت مثلاً.

مضربه: يُضْرَبُ للموصوف بالحذر، من حيوانٍ أو إنسان، وذلك أنه ليس شيءٌ من يَحْذَرُ حَذَرَ العَيْرِ إذا طُلِبَ.

٢- (عَيْرٌ بَعِيرٌ وَزِيَادَةُ عَشْرَةٍ):

مورده: قال أبو عبيد: هذا مثلٌ لأهل الشام، ليس يتكلم به غيرهم. وأصل هذا أن خلفاءهم من بني أمية، كلما مات واحدٌ منهم، زادهم الذي يخلفه منهم عشرةٌ في أعطياتهم، فكانوا يقولون عند ذلك هذا القول، ومعنى العير هنا: السيد.

مضربه: يُضْرَبُ في كل وضعٍ يعقب وضعاً، أو شخصٍ يخلف شخصاً، فيحصل مع الجديد خيرٌ ونفع.

٣- (عَيْرٌ عَارَةٌ وَيَدُهُ):

عاره يَعُورُهُ، وَيَعِيرُهُ: ذهب به وأهلكه، ومنه قولهم: ما أدري أيُّ الجراد عَارُهُ، أي: أيُّ الناس ذهب به.

مورده: أصل هذا المثل أن رجلاً أشفق على حماره، فربطه إلى وتد، فهجم عليه السبع، فلم يمكنه الفرار، فأهلكه ما احترس له به.

مضربه: يُضْرَبُ لكل ما يأتيه هلاكه من جهة احتراسه.

٤- (عَيْرٌ رَكُضَتُهُ أُمُهُ):

ويروى: ركلته أُمُهُ، والمعنى متقارب.

مورده: لا بد أن أصله حمارة ركلت ولدها فمات أو تضرر، دون قصدٍ منها، مع أنها التي ترأه وتحافظ عليه.

مضربه: يُضْرَبُ لكل من يظلمه ناصره.

٥- (نَجَّى عِيراً سِمْنَهُ):

مورده: قال في «مجمع الأمثال»^(١): قال أبو زيد: زعموا أن حمراً كانت هزالاً، فهلك في جذب، ونجا منها حمارٌ كان سميناً، رأوا أنها نجاه سمنه، أي: استعداده لمواجهة الجذب.

مضربه: يُضرب في الحزم قبل وقوع الأمر، ولكل من خلّصه استعداده المسبق من المكروه.

٦- (عَيَّرُ وَحْدَهُ):

ويُقال أيضاً: (جَحِشُ وَحْدَهُ)، و(جَحِشُ نَفْسِهِ).

قال بعضهم: أي: يعاير الناس والأمر، ويقيسها بنفسه من غير أن يشاور «مجمع الأمثال»^(٢)، وقال في «اللسان»: هو مثلٌ قائمٌ على التشبيه، يشبهون فيه الرجل المستبد برأيه بالجحش والعير، وهو ذمٌّ.

مورده: لا بد أن له قصةً مارس فيها أحدهم التفرد برأيه دون استشارة غيره.

مضربه: يضرب للإنسان الذي لا يخالط الناس مغترّاً برأيه.

٧- (أَصْبَحَ فِيهَا دِهَاهُ كَالْحِمَارِ الْمَوْحُولِ):

مورده: أصله أن الحمار إذا أوحل (وقع في الوحل) غلبه الوحل، فلم يستطع الخلاص منه.

مضربه: يُضرب لمن وقع في أمرٍ لا يرجي له التخلص منه^(٣).

(١) مجمع الأمثال (٢: ٣٣٥).

(٢) المصدر السابق (٢: ٣١).

(٣) الأمثال للميداني (١: ٤٠٤).

٨- (صبراً أتان! فالجحاش حوّل):

لم يذكر له الميداني^(١) مورداً، وقال: والحوّل: جمع حائل، وهي التي لم تحمل عامها، قلت: وما علاقة ذلك بالجحاش، وإنما تحبل الأتان؟ ولعل المقصود تصبير الأتان ووعدها بالجحاش). وقد يُقال: إن مؤنث جحش: جحشة.

مضربه: يُضرب لمن وعد وعداً حسناً، والموعود غير حاضر، وخص الجحاش؛ ليكون التحقيق أبعد.

٩- (أصح من عير أبي سيارة)، ويُقال أيضاً: (أصح من عير)، و(أصح من عير الفلاة).

مورده: هو رجل من بني عدوان اسمه عُمَيْلَة بن خالد بن الأعزل، وكان له حمارٌ أسود أجاز الناس عليه من المزدلفة إلى منى أربعين سنة، وهو أول من سنّ في الدية مائة من الإبل.

ومن شعره:

لا هُمَّ إني تابع تَبَاعَه
إن كان إثمٌ فعلى قُضَاعَه
لا هُمَّ مالي في الحمار الأسود
أصبحتُ بين العالمين أَحْسَدُ
هَلَّا يُكَادُ ذو البعير الجُلُنْدُ!
فَقِ أبا سيّارة المحسّدُ

(١) الأمثال (١: ٤٠٦).

من شرّ كل حاسد إذا حسدُ
ومن أذاة النافثات في العُقدُ

اللهم حبّب بين أنسائنا، وبغض بين رعائنا، واجعل المألّ في سمحائنا.
(لا هُمّ: أصلها: اللهم. الجَلَد: الشديد).
وقال فيه أحد الشعراء:

خلّوا الطريق عن أبي سيّارَه وعن مواليه بني فزاره
حتى يميز سالماً حمارَه مستقبلَ القبلة يدعو جارَه
مضر به: يُقال في الصحة والعافية وطول العمر^(١).

* * *

(١) الأمثال للميداني (١: ٤١٠).

من الأمثال الحمارية

-٢-

قال الزمخشري: الحمار مثلٌ في الذمِّ الشنيع والشتيمة، ومن استحيائهم لذكر اسمه كانوا يُكنُّون عنه، ويُرغَّبون عن التصريح به، فيقولون: الطويل الأذنين، ونحو ذلك، كما يُكنون عن الشيء المستقذر، كما كانوا يعدّون من سوء الأدب أن يذكر الحمار في مجلس قوم ذوي مروءة، ومن العرب من كان لا يركب الحمار استنكافاً، وإن بلغت به الرحلة الجهد.

وقد وعدنا بمواصلة إيراد الأمثال فيه، فلنمضِ في ذلك:

١٠- (إن ذهب عَيْرٌ، فعَيْرٌ في الرِّباط):

الرِّباط: الحبل الذي تربط به الدابة، وسميت الخيل رباطاً لأنها تُربط في الثغر بإزاء العدو، ويربط العدو إزاءها خيله، يُعدّ كلُّ لصاحبه، وفي التنزيل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] ولكنه هنا يعني حباله الصائند.

مورده: أصله أنه قيل لأحد الصيادين فاته بعض ما كان يريد أن يصيد، وأسف لذلك، فهم يقولون له: إن ذهب بعض صيدك فلم يعلق في الحباله، فاقصر على ما علق.

مضربه: يُضرب في الرضا بالحاضر، وترك الغائب^(١).

(١) اللسان، مادة (عير)، جمهرة الأمثال (١: ٩٢).

١١- (أخلى من جوف حمار)، ويُقال أيضاً: (أخرب من جوف حمار):

مورده: قال الميداني^(١): قال ابن هشام الكلبي: هو رجلٌ من عاد، كان يقال له: حمار بن مويلع، وقيل: هو حمار بن مالك بن نصر الأزدي، كان مسلماً على ديانة هود عليه السلام، وكان يملك وادياً ذو ماءٍ وشجر طوله مسيرة يوم في عرض أربعة فراسخ، لم يكن ببلاد العرب أخصب منه، وفيه من كل الثمار، وكان اسمه الجوف (الجوف: من أسماء الوادي، فكل وادٍ هو جوف)، فخرج بنوه يتصيدون، فأصابتهم صاعقةٌ فأهلكتهم، فكفر، وقال: لا أعبد ربّاً فعل ذا ببني، ثم دعا قومه إلى الكفر، فمن عصاه قتله، فأهلكه الله وأخرب واديه، فضربت العرب به المثل في الخراب والخلاء، وأكثرت الشعراء ذكره في أشعارهم، كقول بعضهم:

وبشؤم البغي والغشم قديماً ما خلا جوف، ولم يبق حمارٌ

وقال غيره: ليس حمارٌ هاهنا اسمٌ رجل، بل هو الحمار بعينه، واحتج بقول من يقول: (أخلى من جوف العير) قال: ومعنى ذلك أن الحمار إذا صيد لم يُنتَفَع بشيء مما في جوفه، بل يُرمى ولا يؤكل، فجوف الحمار عندهم بمنزلة الوادي القفر الذي لا منفعة للناس والبهائم فيه، قال امرؤ القيس:

ووادٍ كجوف العير، قفر، مضلّة قطعتُ بسام، ساهم الوجه، حسان

مضربه: قال في «اللسان»: يُقال للموضع الذي لا خير فيه.

١٢- (العير يضرب والمكواة في النار):

وفي «مجمع الأمثال»^(٢): قد يضرب العير، والرمضاء في النار، فهو شطر بيتٍ من بحر البسيط.

(١) مجمع الأمثال (١: ٢٥٧).

(٢) (٢: ٩٥).

مورده: أول من قال ذلك عُرْفُطَةُ بن عَرَفْجَةَ الهِزَّاني، وكان سيّد بني هِزَّان، وكان معاصراً لسيّد بني عُكْل، حصين بن نَبِيتِ العُكْلِي، وكانت بين القبيلتين حروبٌ وثورات، وسارت عكْلُ ذات مرةٍ تريد غزو بني هِزَّان، فنذرت بها هِزَّان واستعدت لها، فاقتلوا قتالاً شديداً، حتى فشّت فيهم الجراح، وقُتل رجل من هِزَّان، وأُسر رجلان من عُكْل بعد أن انهزمت. وقال عُرْفُطَةُ للأسيرين: أيكما أفضلُ لأقتله بصاحبنا ويفادى الآخر؟ فجعل كلُّ منهما يخبر أن صاحبه أكرم منه، فأمر بقتلهما جميعاً، فقدّم أحدهما للقتل، فجعل الآخرُ يضربُ، فقال عُرْفُطَةُ هذا المثل؛ لأن الحمار من شأنه أن يضرب إذا قدّم للكيّ، والمكواة ما تزال في النار لم تَطْلُه.

مضربه: يُضرب للرجل يخاف الأمر، فيجزع قبل وقوعه فيه.

١٣- (قرب الحمار من الرّذهة، ولا تقل له: سَأُ):

الرّذهة: مستنقع الماء. سَأُ: كلمةٌ يُزجر بها الحمار ويُدعى للشرب، يقال: سَأَسْتُ بالحمار، أي: دعوته ليشرب.

مورده: واقعةٌ حمارية استدعت هذا القول، ومعناه: كِلِ الأمر إليه، ولا تكرهه على فعله إذا أريته ما يصلح له.

مضربه: يُضرب للرجل يعلم ما يصنع^(١).

١٤- (قبل عَيْرٍ وما جرى):

مورده: قال الميداني^(٢): قال أبو عبيد: إذا أخبر الرجلُ بالخبر من غير استحقاقٍ ولا ذكرٍ له، قيل: فعل كذا وكذا، قيل عَيْرٍ وما جرى. قالوا: خص العَيْرُ لأنه أحذر ما يُقنص،

(١) مجمع الأمثال للميداني (٢: ٩٤).

(٢) المصدر السابق (٢: ٩٦).

فهو أسرع جرياً من غيره، فضرب به المثل في السرعة. فمعناه - كما قال الأصمعي - قبل أن يجري العير، وهو الحمار.

مضربه: يُضرب لشدة السرعة.

١٥- (وقد حيل بين العير والنزوان):

مورده: قال الميداني^(١): أول من قال ذلك صخر بن عمرو، أخو الخنساء، وذلك أنه طعنه أبو ثور الأسدي في إحدى حروبهم، وهي الطعنة التي مات منها بعد أن لبث حولاً كاملاً مريضاً، حتى ملته امرأته سلمى، وكان قبلُ يكرمها، فقال في أبياتٍ مطلعها:

أرى أم صخرٍ لا تملُّ عيادي	وملّت سُليمى مضجعي ومكاني
فأيّ امرئٍ ساوَى بأمّ حليّة	فلا عاش إلا في شقاً وهوانٍ
أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعه	وقد حيل بين العير والنزوان

ثم مات من أثر تلك الطعنة.

مضربه: يُضرب لكل من حيل بينه وبين ما يريد.



(١) مجمع الأمثال (٢: ٩٦).

من الأمثال الحمارية

- ٣ -

وهكذا نواصل الرحلة مع هذا النوع من الأمثال:

١٦- (أخلف من ولد الحمار):

مورده: يعنون البغل؛ لأنه لا يشبه أباه الحمار، ولا أمه الفرس، فالبغل يأتي نتيجة نزو الحمار على الفرس، قالوا: وليس في الحيوان ما ينزو على غير نفسه ويلقح، إلا الحمار والفرس.

ولا تلامح بين البغل والبغلة، ولهذا قال العرب: (أعقم من بغلة).

مضربه: يُضرب في مخالفه الفرع للأصل.

١٧- (عشّر تعشير الحمار):

مورده: قال الجوهري: تعشير الحمار: نهيقه عشر مرات في طَلْقٍ واحد، قال الشاعر:

لعمري، لأنَّ عَشَّرت من خيفة الردى نُهاق حمار، إنني لجزوعُ

وذلك أنهم كانوا إذا خافوا وباء بليدٍ عَشَّروا كتعشير الحمار قبل أن يدخلوه، زاعمين أن ذلك يدفع عنهم الوباء. وقد رفض عروة بن الورد أن يعشّر عند دخوله أرض المدينة في العصر الجاهلي، لئلا تصيبه حمى يثرب (المالاريا)، وشف لهم عن سخف هذه الخرافة، ولم تصبه الحمى.

مضربه: يُضرب في المبالغة في الاحتياط بما يُظن به الحفظ.

١٨- (حمارٌ يحمل سفراً):

مورده: أصله قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] أي: يثقله حملها، ولا ينفعه علمها.
مضربه: يُضرب لكل من يعلم ولا يعمل بعلمه.

١٩- (هم يتهارجون تهارج الحمُر):

الهرج هنا: كثرة النكاح، وقد هرّجها يهرّجها ويهرّجها هرّجاً: إذا نكحها، وفي حديث صفة أهل الجنة: «إنما هم هرّجاً مرّجاً»، دلالة على كثرة نكاحهم للهور العين.
مورده: الأصل فيه حديث أبي الدرداء^(١): «يتهارجون تهارج البهائم»، أي: يتناكحون ويتسافدون.

مضربه: يُضرب لشدة الاختلاط والإقبال على الجنس.

٢٠- (بال الحمارُ، فاستبال أحمره):

أي: حملهنّ على البول.

مورده: الأصل فيه أن الحمار إذا بال بين الحمير أثار فيهم شهوة البول، فيقلدونه في ذلك، كأنه يُعديهم بذلك، تماماً كما يعدي أحداً جلساءه بالتأؤب.

مضربه: يُضرب في تعاون القوم على ما يُكره.

٢١- (تركته جوف حمار):

أي: لا خير فيه، وانظر المثل الثاني عشر، فإن هذا المثل رديفٌ له.

(١) اللسان، مادة (هرج).

٢٢- (أصبرُ من حمار):

قال الدميري في «حياة الحيوان»^(١): من الحمر الأهلية نوعٌ يصلح لحمل الأثقال، ونوعٌ لين الأعطاف، سريع العدو، يسبق براذين الخيل، وهذا المثل إنما يتجه إلى النوع الأول، ولهذا كانت كنية الحمار: (أبا صابر)، (وأبا زياد)، قال الشاعر في الهجاء:

زيادُ لستُ أدري من أبوه؟ ولكنّ الحمار أبو زيادٍ

وما يزال أهل الشام إلى اليوم يكتنون الحمار: (أبا صابر)، وقد قدّم الممثل السوري (غوار الطوشي) مسلسلاً تلفازياً بعنوان (أبا صابر)، كان يطل فيه مع حماره على الناس من خلال الشاشة الفضية، ويتحاوران تحاوراً يفضي إلى: (إياك أعني، واسمعي يا جارة). وتأثراً به كتبتُ مشهداً غنائياً يحمل العنوان نفسه قدمناه خلال الحفل السنوي لثانوية (قباء) بالمدينة المنورة، التي كنت حينها مديراً لها، ولقي ذلك المشهد كثيراً من الاستحسان، وكان مطلعُه منسوجاً على غرار أغنية لطارق عبدالحكيم: (أنا قلت يكفي الهجر) مطلعُه:

أنا قلتُ يكفي العض	يا حماري على لسان كل البقر
كن كويّس، لا تَعْنَفْص	يا حماري، لا بد من ظلم البشر
أنا لي حمارٌ أذانيه كبار	يا ناس حرامٌ تظلموا حماري

مضرب المثل: يُضرب لقوة التحمل.

٢٣- (شرُّ المال ما لا يُزَكَّى، ولا يُزَكَّى):

مورده: الأصل في عدم الزكاة قوله ﷺ: «ليس في الجُبْهة، ولا في الكُسْعة، ولا في النُخَّة؛ صدقة».

(١) حياة الحيوان (١: ٢٣٨).

(الجبهة: الخيل. الكُسعة: الحمير. النُّخَّة: الرقيق، أو البقر العوامل).

والأصل في عدم الذبح ما روى جابر رضي الله عنه وغيره: (أن النبي ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل) متفقٌ عليه.
مضربه: يُقال في امتلاك ما لا خير فيه.

* * *

من الأمثال الحمارية

- ٤ -

٢٤- (ما بقي منه إلا قَدْرُ ظَمءٍ حمار):

قالوا: وهو أقصر الظَمء؛ وذلك لقلة صبره عن الماء. فهو على عكس الجمل الذي يُعرف بطول صبره على الماء.

مورده: قال الميداني^(١): قال أبو عبيد: وهذا المثل يُروى عن مروان بن الحكم، حيث قال في الفتنة: الآن حين نَفَدَ عمري، فلم يبعد إلا قَدْرَ ظَمءٍ الحمار، صرت أضرب الجيوش بعضها ببعض؟

مضربه: يُضرب لقصر المدة المتاحة.

٢٥- (أذل من حمارٍ مقيّد):

مورده: أصله قول الشاعر:

وما يقيم على ضيمٍ يُراد به إلا الأذلان: عَيْرُ الحَيِّ، والوتدُ
هذا على الخسفِ مربوط برُمَّتِهِ وذو يُشجُّ فلا يرثي له أحدُ

(الخسف: الظلم. الرُّمة: قطعة الحبل).

(١) مجمع الأمثال (٢: ٢٦٨).

قال في «اللسان»: ومن أمثالهم: (فلان أذلُّ من العَيْر)، قال الشاعر:
لو كنتَ عييراً كنتَ عَيْرَ مَذَلَّةٍ أو كنتَ عظماً، كنتَ كِسْرَ قَبِيحٍ
(كِسْر القبيح: طرف عظم المرفق الذي لا لحم فيه).
مضربه: يُضرب في منتهى تحمل الذل.

٢٦- (أدنى حماريك أزجري):

مورده: أصله ما أنشده ابن الأعرابي:

فأدنى حماريك أزجري إن أردتِنا ولا تذهبي في رنق لبِّ مضللٍ

قال في «اللسان»: هو مثلُّ ضربه، يقول: عليك بزواجك، ولا يطمح بصرك إلى آخر، وكان لها حماران، أحدهما قد تآبى عنها، يقول: أزجري هذا لئلاً يلحق بذلك. وقال ثعلب: معناه: أقبلي علي، واتركي غيري. وجاء هذا المثل عند الميداني بلفظ: (أحد حماريك أزجري)^(١).

مضربه: قال الميداني: يُضرب لمن تكلف ما لا يعنيه.

٢٧- (الجحش، لما بذك الأعيار):

أي: سبقك الأعيارُ فعليك بالجحش، وهو ولد الحمار. فكأن أصله قيام سباق للحصول على الأعيار، فلما فاته الحصول عليها دلّوه على الجحش، خشية أن يفوته أيضاً.
مضربه: يُضرب لمن يطلب الأمر الكبير فيفوته، فيقال له: اطلب دون ذلك. قال الميداني^(٢): يُضرب في قناعة الرجل ببعض حاجته دون بعض.

(١) لسان العرب (١: ٥٠).

(٢) مجمع الأمثال (١: ١٦٥).

٢٨- (جاء كخاصي العَيْر):

مورده: أصله أن خاصي العَيْر يطرق رأسه عند خِصائه، يتأمل في كيفية ما يصنع، وهيته في ذلك تشبه هيئة المستحيي يكون مُطْرِقاً. قال أبو خِراش:

فجاءت كخاصي العَيْر، لم تَحُلْ حاجةً ولا عاجةً منها تلوح على وشمٍ
مضربه: يُضرب لمن جاء مستحيياً. كما يُضرب لمن جاء عرياناً ليس معه شيء.

٢٩- (جاء بقرني حمار)^(١):

مورده: أصله أن الحمار لا قرن له، فهو مثل قائم على الإيهام بشيء غير موجود.
مضربه: يُضرب لمن يجيء بالكذب والباطل، فكأنه جاء بما لا يمكن أن يكون.

٣٠- (أجهل من حمار):

ويُقال أيضاً: (أكفر من حمار). المقصود: حمار بن مالك، رجلٌ من قوم عاد، (انظر المثل الحادي عشر) قال الشاعر:

ألم تر أن حارثة بن بدرٍ يصلي، وهو أكفر من حمارٍ

٣١- (جرى المذكي حسرت عنه الحمُر):

حسرت الدابة، تحسُر حُسوراً: أعيث وتعبت، وحسرت عنه: عجزت عنه وعن إدراك شأوه.

مورده: أصله أن الفرس القادح (وهو المذكي هنا) يسبق الحمير، كأنه قال: يجري فلانٌ جري المذكي.

مضربه: يُضرب للسابق أقرانه.

(١) مجمع الأمثال (١: ١٦٧).

٣٢- (جَذَّهَا جَذَّ الْعَيْرِ الصَّلْيَانَةُ):

الجذّ: القطع والكسر. الصَّلْيَانُ: بقلّ ربما اقتلعه العير من أصله إذا ارتعاه.

مورده: هذه الحالة الموضحة أعلاه، من سلوك العير في الرعي.

مضربه: يُضْرَب لمن يسرع الحلف من غير ترددٍ ولا تمهلٍ، والهاء في (جذّها)، عائد إلى اليمين تقديراً.

٣٣- (كَانَ حِمَاراً فَاسْتَأْنَنَ):

السين والتاء هنا للصيرورة، كقولهم: استنوق الجمل، أي: صار جملاً. واستنسر البغاث: أي: صار نسرأً، وعلى هذا يكون المعنى: صار الحمار أتاناً.

مورده: أن الحمار هو ذكر الحمير، والأتان أُنثاه، والذكر مخصوص بنوع من المعاملة، فإذا امتُهن عومل ببعض ما تعامل به الأنثى.

مضربه: يُضْرَب للرجل يهون بعد العز.



من الأمثال الحمارية

- ٥ -

٣٤- (أودى العَيْرُ إلا ضَرْطاً)

مورده: لم يذكروا له مورداً.

مضربه: يضرب مثلاً للشيء يذهب إلا أخسُّه. قال أبو هلال العسكري: ومن هذا المثل أخذ الشاعر قوله:

لا تنكحَنَّ عجوزاً إن أُتيتَ بها واخلع ثيابك منها ممعناً هرباً
فإن أتوك فقالوا: إنها نَصَفٌ فإن أمثل نصفينها الذي ذهباً

٣٥- (أتبع من تُولب):

مورده: التولب: ولد الحمار، وولد الفرس. وولد البقرة. يتبع أمه. قال أبو هلال العسكري: ولا أعرف لمْ خُصَّ التولب بذلك.
مضربه: يُضرب لمن هو شديد المتابعة لغيره.

٣٦- (أذل من حمار قَبَّان):

قال الدَّميري في «حياة الحيوان»^(١): دويبةٌ مستديرةٌ بقدر الدينار، ضامرة البطن،

(١) حياة الحيوان (١: ٢٥٦).

متولدة من الأماكن الندية، على ظهرها شبه المجن، مرتفعة الظهر، كأنه قبة، إذا مشت لا يرى منها سوى أطراف رجليها، إلخ...

والأقْبُ في اللغة هو الضامر البطن من الخيل والناس، وقال الشاعر في حمار قَبَان هذا:

يا عجباً، لقد رأيت عجباً! حمارَ قَبَان يسوق أرنبا
خاطبها، يمتنعها أن تذهب فقالت: اردفني، فقال: مرحبا !

٣٧- (ذكرني فوك حماري أهلي):

مورده: أصله أن رجلاً خرج يطلب حمارين لأهله أضلّهما، فمرّ على امرأة جميلة المنتقب، ففقد يحادثها، ونسي حماريه لشغل قلبه بها، ثم سفرت، فإذا لها أسنان منكرة، فتذكر بها أسنان الحمار، فانصرف عنها هارباً وهو يقول: ذكرني فوك حماري أهلي. مضربه: يضرب في الاغترار بالمظهر، ووجوب التأكد من موافقة المخبر له.

٣٨- (سواسية كأسنان الحمار):

أي: مُستوون في الشر، قالوا: لا يقال: سواسية إلا في الشر، قال ابن أحر:

سواسٍ كأسنان الحمار، فلا ترى لذي شبيبة منهم على ناشئ فضلاً
وقال ذو الرمة:

لهم زمرة شهبُ السِّبالِ، أذلة سواسية أحرارها وعبيدُها
وقال أيضاً:

سبينا منهم سبعين خوداً سواسي، لم يُفَضَّ لها ختامُ

وقالوا: وهي كلمة موضوعة موضعَ سواء، وليست جمعاً لها. وتستعمل (سواء) للخير والشر، ومن ذلك قوله ﷺ: «إنما الناس سواءٌ كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية»، أي: الرحمة. وقال الفرزدق:

شبابهم وشيئهم سواءٌ وهم في اللؤم أسنانُ الحمارِ

مورده: سلوك العرب الجاهلين في التفريق بين أفراد القبيلة الواحدة. مضر به: يُضرب لوجوب التسوية.

٣٩- (أقصر من غبّ الحمار):

الغب: السقاء يوماً بعد يوم، والحمار لا يصبر أكثر من غبّ واحد، (انظر المثل الرابع والعشرين).

٤٠- (كل الصيد في جوف الفراء):

الفراء، والفراء: الحمار الوحشي، ويجمع على فراء، بكسر الفاء، على وزن فِعال. مورده: قال الميداني^(١): وأصل المثل أن ثلاثة نفرٍ خرجوا للصيد، فاصطاد أحدهم أرنباً، والآخر ظبياً، والثالث حمراً، فاستبشر صاحب الأرنب وصاحب الظبي بما نالا وتطاولا على صاحبهما، فقال لهما: كل الصيد في جوف الفراء، أي: أن الصيد الذي ظفرتُ به يشتمل على كل ما عندكما، وذلك أنه ليس مما يصيده الناس أعظمُ من الحمار الوحشي.

وتألف النبي ﷺ أبا سفيان الشاعر بهذا القول، حين استأذن عليه، فحجبه قليلاً، ثم أذن له، فلما دخل قال: ما كدت تأذن لي حتى تأذن لحجارة الجُلْهُمَتَيْنِ (مفردها جُلْهُمة،

(١) مجمع الأمثال (٢: ١٣٦).

وهي ناحية الوادي. قلت: وربما أراد بطرف الوادي هنا: الحرّتين)، فقال له ﷺ: «يا أبا سفيان، (هو أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان من المؤلفة قلوبهم، وممن هجوا النبي ﷺ): أنت كما قيل، كل الصيد في جوف الفراء»، يتألفه للإسلام.

قال في «اللسان»: ومعناه أنت في الناس كحمار الوحش في الصيد، هو مثلها كلها. وقال أبو العباس: معناه: أنه إذا حجبته منع كل محجوب، ورضي، لأن كل صيد أقل من الحمار الوحشي، فكل صيد لغيره يدخل في جوف الحمار، وذلك أنه حجبه وأذن لغيره.

مضربه: يُضرب هذا المثل للرجل يكون له حاجات، منها واحدة كبيرة قُضيت، فهو لا يبالي بعدم قضاء حاجاته الصغيرة.

٤١- (كَلَّا، زَعَمْتَ الْعِيرَ لَا تَقَاتِلْ):

مورده: هو شطْرُ بيت، يصف حالة مفاجئة من عير، وأصل العير: قافلة الحمير، ثم سُميت بها كل قافلة، كأنها جمع عَيْر. (.. اللسان).

مضربه: يُضرب للرجل قد كان أَمِنَ أن يكون عنده شيء، ثم ظهر منه غير ما ظنَّ به.



من الأمثال الحمارية

- ٦ -

٤٢- (كحماري العبادي):

قالوا: العباد من أفناء العرب (أي: من أخلاطهم، لا يدرى من أية قبيلة هم) نزلوا الحيرة، وكانوا نصارى، منهم: الشاعر عدي بن زيد العبادي. أما العبادي، بفتح العين وتشديد الباء فشيء آخر.

مورده: قالوا: كان لعبادي حماران، فقيل له: أيُّ حمارك شر؟ قال: هذا، ثم هذا.

قال الشاعر:

جنسان ما لهما في الناس من مثلٍ إلا حمارُ العبادي الذي وُصفا
مجرَّحان الكلى، تَدْمَى نُحُورُهُما قد لازما مُحَرَّق الأنساع والأُكفا

(الأنساع: جمع نسع، وهو سيرٌ عريضٌ من الجلد تُشدُّ به الرحال ونحوها. الأُكف: جمع إكاف، وهو البرذعة).

وتحكم نفرٌ إلى الرِّقَاشي في أيهما أسفل: الكناس أم الحجام؟ فأنشد قول الشاعر:

حمار العبادي الذي سِيلَ فيهما وكانا على حالي من الشر واحدٍ

مضربه: يُضرب في كل خلتين، إحداهما شرٌّ من الأخرى.

٤٣- (كذنب الحمار):

مضربه: ذكره الميداني في أمثال المولدين^(١) وقال: يُضرب لما لا يزيد ولا ينقص.

٤٤- (لأضربته ضرب أوابي الحمُر):

حمارُ آبٍ: حرون، يأبى المشي، والجمع: أوابٍ.

مضربه: قال الميداني^(٢): يُضرب مثلاً للتهديد.

٤٥- (لأضربنك غبّ الحمار، وظاهرة الفرس):

مورده: غبّ الحمار: أن يشرب يوماً ويدع يوماً. ظاهرة الفرس: أن يشرب كل يوم، والمعنى: لأضربنك كلّ وقت^(٣).

مضربه: يُضرب مثلاً للتهديد أيضاً. وانظر المثل التاسع والثلاثون.

٤٦- (لقيته أوّل صوْكٍ وبوْك):

مورده: هو: مأخوذٌ من البوْك والصَّيْك. أما البوْك، فمن قولهم: باك الحمار أتانهُ، يبوْكها بوْكاً، أي: نزا عليها. وأما الصَّيْك فمن قولهم: صاك الطيبُ يصيك صيْكاً، أي: لصق. وصيّر الصَّيْك صَوْكاً للمشاكلة.

مضربه: الصوْك يدل على السكون، والبوْك يدل على الحركة، فكأنه قال: لقيته أوّل متحرِّكٍ وساكن. فيضرب للذي تلقاه أوّل شيء.

(١) مجمع الأمثال (٢: ١٧٢).

(٢) المصدر السابق (٢: ١٨٠).

(٣) المصدر السابق (٢: ١٩٧).

٤٧- (لا يأبى الكرامة إلا حمار):

مورده: قال الميداني^(١): قال المفضل: أول من قال ذلك أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وذلك أنه دخل عليه رجلان، فرمى لهما بوسادتين، فقعد أحدهما على الوسادة، ولم يقعد الآخر، فقال له علي: اقعد على الوسادة، لا يأبى الكرامة إلا حمار، فقعد الرجل على الوسادة.

مضربه: يُقال لكل من يرفض التكريم.

٤٨- (لا حاء ولا ساء):

أي: لم يأمر ولم ينه. يقال: حاء بضائك، أي: ادعها. ويقال: سأسأت بالحمار، أي: دعوته ليشرب.

مضربه: يُضرب للرجل إذا بلغ النهاية في السن.

٤٩- (أنكحنا الفراء، فسرى):

مورده: قال الميداني^(٢): قاله رجل لامرأته حين خطب إليه ابنته رجل وأبى أن يزوجه، فرضيت أمها بتزويجه، فغلبت الأب حتى زوجه منه بكره، ثم أساء الزوج العشرة فطلقها.

مضربه: يُضرب في التحذير من سوء العاقبة.

٥٠- (هو من حمير الحاجات):

أي: ممن يستخدم في قضاء الحاجات.

مضربه: يُضرب للحقير الذليل.

(١) مجمع الأمثال (٢: ٢٢٥).

(٢) المصدر السابق (٢: ٣٣٥).

٥١- (يَكْرِفُ غُونًا نَجِفٌ مَّمْعُولٌ):

الْعُون: جمع عانة، وهي الجماعة من حمر الوحش. النَّجِف: الفحل عليه النَّجَاف، وهو شيءٌ يُشَدُّ على بطن الفحل حتى يمنعه عن الضَّراب. المَّمْعُول: الحمار سُلِّتْ خُجْرَتَاهُ. كَرَفَ الحمارُ بَوْلَ أَتَانِهِ: شَمَّه ثم رفع رأسه وقلب شفته.

مضربه: يُضْرَب لمن يتقرب إلى من يمنعه خيره، ويقصيه.

٥٢- (ما الْعَيْرُ من قِماص):

قال أبو هلال العسكري^(١): هكذا رُوي لنا، والصحيح: (أما بالعين من قِماص؟).

مضربه: قال: يُضْرَب للذليل لا يستقر في موضع، تراه يَقْمِص من مكانه من غير

صبر.

ويقال للقلق: قد أخذ القِماص.

٥٣- (ودَقَ الْعَيْرُ إلى الماء):

ودَقَ إلى الماء: دنا منه، واستأنس له.

مضربه: يُضْرَب للجبان يَفْزَع، فيستكين.



(١) جمهرة الأمثال (٢: ١٩٤).

من الأمثال الحمارية

- ٧ -

٥٤- (وقعا عِكمي عَيْر):

العِكمَان: مفردهما عِكم، وهو الحمل، وإذا وقع العِكمَان عن ظهر الدابة وصلّا إلى الأرض معاً. ويقال أيضاً: (هما عِكمَا عَيْر)، أي: هما سواء، كما يقال أيضاً: (ما وقعا عِكمي عَيْر)، أي: هما ليسا بسواء. ويقولون في هذا المعنى: (وقعا كركبتي البعير)، لأن ركبتي البعير إذا أراد البروك وقعتا معاً. وقالوا أيضاً: (سقط المتصارعان عِلمي بعير) أي: متساويين.

مضربه: يُضرب للشئئين المستويين.

٥٥- (لا تكن أدنى العَيْرين إلى السهم):

معناه: لا تتعرض للشر من بين أصحابك، فتكون أقربهم إلى المكروه. قال أبو هلال العسكري^(١): ونحوه قولهم: (لا تَكُنْ كالباحث عن الشَّفْرة).

مضربه: يُقال في التحذير من التعرض للشر.

٥٦- (فلان أكفر من حمار):

مورده: هو رجلٌ من عاد ضربت العرب به المثل في الكفر، قال الشاعر:

(١) جمهرة الأمثال (٢: ٣١١).

ألم تر أن حارثة بن بدرٍ يُصلي، وهو أكفرُ من حمارٍ مضره: يُضرب لشدة الكفر. وانظر المثل الحادي عشر، ففيه تفصيل.

٥٧- (أكلُ شوائكم هذا جوفان؟)

مورده: أصله أن رجلاً من بني فزارة، ورجلاً من بني عبس، ورجلاً من بني عبدالله بن غطفان، صادوا عيراً (أي: حماراً وحشياً)، فأوقدوا ناراً، وخرج الفزاري لحاجة، فاجتمع رأي العبدي، والعبسي على أن يقطعا جوفان الحمار، أي: ذكره، ثم دساه في الشواء، فلما رجع الفزاري جعل العبدي يحرك الجمر بالمسعر، ويستخرج القطعة الطيبة، فيأكلها ويطعم منها صاحبه، وإذا وقع في يده شيءٌ من جوفان الحمار دفعه إلى الفزاري، فجعل الفزاري كلما مضغ منه شيئاً امتدَّ في يده، وجعل ينظر فيه فيرى فيه ثقباً، فيقول: ناولني غيرها، فيناولها مثلها، فلما فعل ذلك مراراً قال: (أكلُ شوائكم هذا جوفان؟)، فذهبت مقولته مثلاً.

مضره: يُضرب في تساوي الشيء في الشر^(١).

٥٨- (أجهل من حمار أهله):

ما يزال الناس يشبهون الجاهل بالحمار، فإذا توغل في الجهل قيل عنه: أجهل من حمار، أو أجهل من حمار أهله.

مضره: كان ابن تيمية رحمه الله يستعملها فيمن يزيغ ويصر على زيغه رغم قيام الأدلة.

٥٩- (أضلّ من حمار أهله):

هو كالمثل السابق.

(١) الأمثال للميداني (٢: ١٥١).

٦٠- (أسرع من العَيْر):

مورده: قالوا: إن العير هنا هو إنسان العين، سمي عَيْراً لَتَوَّه، ومن هذا قولهم في المثل الآخر: (جاء فلانٌ قبل عَيْرٍ وما جرى)، يريدون به السرعة، أي: قبل لحظ العين، قال الشاعر تَابَّطَ شَرًّا:

ونار قد حضأتُ بُعيدَ وهنٍ بدارٍ ما أردتُ بها مُقاما
سوى تحليلِ راحلةٍ، وعَيْرٍ أكالته مخافة أن يناما

(حضأت: أوقدت. الوهن: نحو منتصف الليل. أكالته: أراقبه).
مضربه: يُضرب في شدة السرعة.

٦١- (سار أُحْدُ كما سار عَيْرٌ):

جبل عَيْرٌ: هو حدّ حرم المدينة المنورة من ناحية الجنوب، كما أن جبل ثُور الموجود شمال أحد بجانب الصرف الصحي هو حدها من ناحية الشمال، ومن الغريب أن أمانة المدينة أو بعض مهندسيها وجدوا أن المسافة بين عَيْرٍ والحجرة النبوية المشرفة، مساويةٌ للمسافة التي بينها وبين جبل ثور المشار إليه. وقد جاء في بعض الآثار أن عَيْراً يسير في آخر الزمان إلى موضع كذا، ثم يسير أُحْدُ بعده، فيُراعى الناس ويقولون هذه الجملة.
مضربه: يضرب لتوالي الأحداث ذات الدلالة.

٦٢- (كل من ضرب العَيْرَ مَوَالٍ لنا):

مورده: أول من قاله الشاعر الحارث بن حِلْزَة، قال:

زعموا أن كل من ضربَ العَيْرَ رَ مَوَالٍ لنا، وأنا الولاءُ

قال الخليل بن أحمد: المراد كل من ضرب بجفنٍ على عين. فالعير هو إنسان العين كما أسلفنا. وقال آخرون: المراد بالعين سيد القوم، وذلك تشبيه السيد بالعين، لأن العين الذي هو الحمار، قيم الأتن وقريعها.

وقال بعضهم: إنه إنما أراد قبيلة إياد؛ لأنهم كانوا أصحاب حمير. مضره: يُضرب في ادّعاء بسط السيادة.



من الأمثال الحمارية

- ٨ -

قد يملّ الكلام إذا كان مكروراً ويُستقل، وذلك إذا لم يقدم التكرار لطيفةً من اللطائف أو يضيف بعداً فنياً يسهم في تلوين العمل الفني، وقد يملّ الكلام أيضاً لفجاجته وخُفوت جرسه وانطفاء صورته ومعانيه، أو لكونه لم يحقق أهدافه ولم يصل إلى مراميه.

ورغم أن حديثي المتتابع معكم حول أماديح الحمار وأهاجيه، ومناسباته المختلفة التي تحولت إلى أمثالٍ عديدةٍ ضمنها أصحابها معاني شتى، وأسبغوا عليها من الإيجاءات والدلالات الكثير، فإنني خشيت أن أكون قد وصلت إلى الإملال والإكلال، لكن عدت لأستريحكم العذر لأشرككم معي في الاستمتاع بالحديث عن الحمير، وبخاصة إذا وجدنا أنفسنا مضطرين لمعايشتهم ومداخلتهم، وزعمت أن من المناسب أن أجمع ما كتبه وأكتبه عنهم في كتابٍ مستقل تحت عنوان (قراءةٌ في ملفات بعض الحمير)، وما كان (حديث الأربعاء) لطفه حسين إلا مقالاتٍ مكتوبةً في صحيفةٍ ينظرها الناس كل أسبوع، وما أكثر ما فعله غيره من الكتّاب، فهُبُّوا معي لمتابعة الكتابة في الموضوع:

٦٣- (الحمارُ السُّوءُ دَبَّرَهُ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ مَكْوُكٍ شَعِيرٍ):

الدَّبَرُ: اسم جنسٍ جمعي، مفردُه دَبْرَةٌ، وهي: قَرَحَةُ الدابة. المَكْوُكُ: هو هنا عبارةٌ عن مكّيالٍ كان يستعمله القدماء، يختلف باختلاف ما يصطلح الناس عليه في البلاد.

ومعناه: أن وقوع الدبر عليه أمرٌ لا يسيء؛ وذلك لسوئه.

مضربه: يُضرب في التعبير عن عدم الاكتراث بما يصيب المسيئين.

٦٤- (الحمير نعتُ الأكافين):

الأكاف: صانع الأكف، جمع إكاف، وهو البرذعة، ويقال: أَكَّفَ فلان الحمَارَ والبغل، إذا شَدَّ عليها الإكاف. ومعنى المثل: أن الأكافين هم أعلم الناس بالحمير وأوصافها. مضربه: يُضرب في الدلالة على دقة خبرة المتخصصين.

٦٥- (الحمَار على كراه يموت):

معناه: أن أصحاب الحمير حريصون على تحصيل أجرتهم من مستأجري حميرهم. مضربه: يُضرب في كل حريص.

٦٦- (ذهب الحمَار يطلب قرنين، فعاد مصلوم الأذنين):

القرنان: مثني قرن، وهو المعروف في الحيوانات. الصَّلَم: القطع. مضربه: يُضرب في الدعوة إلى القناعة، وبيان أن الطمع يضر ولا ينفع.

٦٧- (زَلَقَ الحمَار، وكان من سَهْوَةِ المُكَارِي):

زَلَقَت القدم: زَلَّت ولم تثبت. المُكَارِي: أجير الدواب، ويغلب على الحمَار والبغال، ويجمع على مُكَارِين.

مضربه: يُضرب في توافق الرغبة مع المصادفة.

٦٨- (زَلَّ حمارك في الطين):

مضربه: يُضرب للعجز وانعدام الوسيلة.

٦٩- (دون ذا، وَيَنْفُقُ الحمار):

يَنْفُقُ: يَرْوِج. وأصله: أن إنساناً أراد بيع حمارٍ له فقال لمشوّر: أطر حماري ولك عليّ جُعْل. فلما دخل به السوق قال له المشوّر: أهذا حمارك الذي كنت تصيد عليه الوحش؟ قال الرجل: (دون ذا وَيَنْفُقُ الحمار) أي: لا تبالغ في ترويجك للحمار، وقل قولاً معقولاً مقبولاً، يباع به الحمار.

والواو في (وينفق) واو الحال.

الجُعْل: ما يُجعل على العمل من أجرٍ أو رشوة. ومثله الجعالة.

المشوّر: اسم فاعلٍ من قولهم: شوّر الدابة، أي: اختبرها وجربها لينظر كيف مشوارها أي: سيرها. ويسمى المكان الذي تشوّر فيه الدواب وتعرض: المشوار، ومن هنا جاء قولهم: (إياك والخطب، فإنها مشوار، كثير العثار)، ومنه جاءت كلمة (مشوار) المعروفة اليوم.

مضربه: يُضرب عند المبالغة في المدح، إذا كان يقع الاكتفاء بدونه.

٧٠- (فَصْفِصَّةٌ حمارُها لا يَقْمُصُ):

الفَصْفِصَة: جمعها فصافص، واسم الجنس الجمعي: الفَصْفِص، وفي لغة أهل الشام: الفِصّة: هي نباتٌ عشبي، من الفصيلة القرنية، مُعَمَّر، ويسميه بعضهم البرسيم الحجازي، وهو بالفعل: البرسيم المعروف لدينا بالحجاز الآن. يَقْمُص: ينفر ويضرب برجليه.

مضربه: يُضرب لمن يصنع المعروف في غير أهله.

٧١- (أهون من ذنب الحمار على البيطار):

البيطار: معالج الدواب، ويسمى بطيراً أيضاً. يُضرب في التهوين من الشأن، والخطّ من الأقدار.

٧٢- (كذنب الحمار):

يُضرب لعدم الزيادة والنقص.

٧٣- (ليس للحمار الواقع كصاحبه):

يُضرب في بيان الأراف بمدّ يد المعونة.

٧٤- (أنذ من حمار الوحش):

يُضرب في الاستعصاء عن التواذ والمؤانسة.

٧٥- (برئت من ربّ يركب الحمار):

أصله: أن أحدهم ادعى الألوهية وكان يركب حماراً، فراه أعرابي، فلم يعجبه ذلك فقال بفطرته: (برئت من ربّ يركب الحمار).

مضربه: يُضرب في التهوين من شأن المتعاضمين.

* * *

من الأمثال الحمارية

- ٩ -

٧٦- (بجبهة العَيْر، يُفدى حافر الفرس):

أصله نصف بيت شعري من بحر البسيط. يدل على أن قيمة الشيء الأعلى في الناقص: تساوي أقل شيء في الكامل.

مضربه: يُضرب في بيان قيمة الأشياء والناس.

٧٧- (ابن عم النبي من اليعفور):

اليعفور: اسم حمار كان للنبي محمد ﷺ.

مضربه: يُضرب للدعي الذي يدعي الشرف بالانتساب إلى النبي ﷺ، والمعنى أنه لا قرابة بينهما.

٧٨- (ترافدوا ترافد الحمُر بأموالها):

ترافدوا: تعاونوا. وهو مثل قائم على التشبيه، ورفدتُ فلاناً: أعتته.

مضربه: يُضرب في التعاون في صغار الأمور.

٧٩- (تركته على مثل عَضْرَطِ العَيْر):

عَضْرَطِ العَيْر: عِجَانُهُ، وهو الاست، وقيل: هو القضيب الممدود من الخُضْية إلى الدبر، أو ما بين القبل والدبر، وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَنْقُرُ عِنْدَ عِجَانِهِ» ليؤهمه بانتقاض وضوئه.

وقال جرير:

يمدّ الحبلَ معتمداً عليه كأن عِجَانَهُ وتَرَّ جَدِيدُ

والجمع: أعجنة وعُجْن. والعجان في لغة أهل اليمن: العنق. قال الشاعر:

يَا رَبَّ خَوْدِ ضَلْعَةِ الْعِجَانِ عِجَانُهَا أَطْوَلُ مِنْ سِنَانِ

مضربه: يُضْرَبُ لِمَنْ لَمْ تَدَعْ لَهُ شَيْئاً؛ لَأَنَّكَ أَخَذْتَ مِنْهُ كُلَّ أَشْيَاءِهِ.

٨٠- (اربط حمارك، إنه مُسْتَنْفِر):

ربط يربط ويربط. واستنفر: بمعنى نَفَر. والمعنى: كُفَّ فَقْدَ عِرْتٍ فِي شَتَمِ قَوْمِكَ

كما يَعِيرُ الْحِمَارَ فِي مَرْبَطِهِ. أي: كما ينطلق الحمار على وجهه لا يثنيه شيء.

مضربه: يُضْرَبُ لِمَنْ يُوْذِي قَوْمَهُ.

٨١- (الكبش الكَرَّاز كالحمار في الوقير):

هو في حكم المثل، وإن لم ينصوا على أنه من الأمثال. ووجه الشبه بينهما أن الراعي

يستخدم الكَرَّاز استخدام الحمار، فيركبه، ويحمل عليه كُرْزَهُ (الخُرْج الكبير، يحمل فيه

الراعي زاده ومتاعه)، والكَرَّاز: الكبش الكبير الحجم، الأجم (أي ليس بذئ قرون).

قالوا: ويعيش هذا النوع من الكباش إن سلم من الذبح عشرين سنة، والحمار الوقير، أي:

الموقور ذو الحمل الثقيل، ومن معانيه أيضاً: الغنم بكلبها وحمارها وراعيها.

مضربه: يُضْرَبُ فِي قُوَّةِ التَّحْمَلِ، وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى التَّشْبِيهِ.

٨٢- (فَلِمَ رَبَضَ الْعَيْرُ إِذْنَ):

مورده: قاله امرؤ القيس لما ألبسه قيصر الثياب المسمومة وخرج من عنده، وتلقاه

عَيْرٌ، فَرَبَضَ، ففُتِّعَ امرؤ القيس (أي: استشعرَ شراً)، فقليل له: لا بأس عليك، قال: فلمَ
ربض العيرِ إذن؟ نعم، أنا ميت.

مضربه: يُضرب للشيء فيه علامةٌ تدل على غير ما يقال لك.

٨٣- (قد يُقدم العير من خوفٍ على الأسد):

أصله نصف بيتٍ من الشعر من بحر البسيط، يسجل حالة الخوف التي تصيب
الحمار حينما يشم رائحة الأسد أو يحس بوجوده، حيث يهرب منه إليه، فيقع بين برائته.

مضربه: يُقال في الإقدام غير المحمود.

٨٤- (كذب العير، وإن كان برح):

أصله نصف بيتٍ من شعر لأبي دؤاد، من بحر الرمل، وهو:

قلتُ لما نَصَلًا من قُنَّةٍ كذبَ العيرِ وإن كان برح
وترى خلفهما إذ مضيا من غبارٍ ساطع قوسَ قُزَح

نَصَلًا: خرجا، يعني كلب الصيد والعير. والقُنَّة: المرتفع من الأرض. كَذَبَ:
هي هنا بعض: فَرَّ، أي: أمكن صيده وإن كان بارحاً. والبارح من الصيد: الآتي من
الجانب الأيسر، قال الميداني: ويجوز أن يكون (كَذَبَ) إغراءً، والمعنى: عليك العيرُ
فصيده وإن كان برح.

مضربه: يُضرب للشيء يُرجى الحصول عليه، وإن كان صعباً.

٨٥- (عيرٌ رعى أنفه الكلاء):

أي: هدته حاسة الشم إلى مواقع العشب.

مضربه: يُضرب لمن يستدل على الشيء بظهور علاماته.

٨٦- (من اعتمد على عَيْر جاره أصبح عَيْرُه في الندى): ويروى (حير غيره):

الْحَيْرُ: الإصطبل، وهو في الأصل حظيرة الإبل. الندى: المقصود هنا المطر.

مضربه: يُضرب في الدعوة إلى الاعتماد على النفس.

٨٧- (إن الأسد ليفترس العَيْر، فإذا أعياه صاد الأرنب):

يُضرب في الرضا بالأدنى عند تعذر الأعلى. ويلاحظ في صياغة هذا المثل شيءٌ

من الركافة، وأنه يفتقد ما عُرِفَ به الأمثال من الاعتماد على الإيجاز وتوهج العبارة،

مما يضمن له سرعة الوصول إلى قلب قارئه وسامعه.



من الأمثال الحمارية

- ١٠ -

٨٨- (حمارٌ عُزَيْر):

أحياءُ الله بعدَ مائة سنة من موته، على قول من يرى أن المعنيَّ في آية البقرة ﴿وَأَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] هو عُزَيْر.

ونظر الفضل بن عيسى الرَّقاشي إلى حمارٍ فارِهٍ تحت سَلَم بن قُتَيْبَةَ فقال: قَعْدَةُ نبي، وبِذْلَةُ جَبَّار، يشير إلى حمارٍ عُزَيْرٍ وعيسى عليه السلام.

وقال بعض المتعصبين للحمار، والقائلين بفضله: وكيف لا أحبُّ شيئاً أحياء الله بعد موته قبل الحشر؟ يعني حمارَ عُزَيْر.

٨٩- (حمارٌ أبي الهذيل):

مورده: أن أبا الهذيل دخل على المأمون، فاحتبسه ليأكل معه، فلما وُضِعَت المائدة وأخذوا في الأكل، قال أبو الهذيل: يا أمير المؤمنين، إن الله لا يستحيي من الحق، غلامي وحمارٌ بالبَاب. فقال: صَدَقْتَ يا أبا الهذيل. ودعا بالحاجب فقال له: اخرج إلى غلام أبي الهذيل وحماره، فقدم لهما ما يصلح لهما من أكل، فخرج وفعل.

وكان محمد بن الجهم إذا تعذَّر عليه أمرٌ يقول: إن الذي سَخَّرَ المأمون لحمار أبي الهذيل وغلامه، قادرٌ على أن يسهل لنا هذا الأمر.

وفعل أبو الهذيل مثل ذلك على مائدة المعتصم.
مضربه: يُضرب في الأمر الصغير يتكلم فيه الرجل.

٩٠- (سنة الحمار):

مورده: تقول العرب لسنة المائة من التاريخ (سنة الحمار). وأصلها من قصة حمارٍ عَزِير، وموتِه مع صاحبه مائة سنة، ثم أحياهما الله، كما جاء ذلك في الآية (٢٥٩) من سورة البقرة. قال الثعالبي:

وسمعتُ أبا نصر العُتبي يقول: عُرض على بعض الأدباء حمارٌ أراد ابتياعه، فوجده مسناً، فقال: أرى هذا الحمار وُلد قبل سنة الحمار.

قال: وإنما قيل لمروان بن محمد: مروان الحمار؛ لأنه جاء على رأس استكمال مُلك بني مروان مائة سنة.

مضربه: فكل مائة سنة يصح تسميتها بسنة الحمار.

٩١- (أنكد من صوف الحمار):

أنكد: أعسر، اسم تفضيلٍ من الفعل: نَكَدَ يَنْكُدُ نَكَدًا أو نَكَادًا، أي: عَسَرَ، وَقَلَّ ونَزَرَ. والنَّكِد: الشحيح، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، ومثله: (أعسر من صوف الكلب)، والحمار والكلب من ذوات الشعر، لا من ذوات الصوف.

مضربه: يُضرب في استحالة الحصول على الشيء.

٩٢- (حمار القصار):

قال الثعالبي في «ثمار القلوب»^(١): يُضرب به المثل فيمن يصير إلى الخوف وسوء القرى، فيقال: كان يوم فلانٍ كحمار القصار. إن جاع سَرَب، وإن عطش شرب.

(١) ثمار القلوب (ص ٢٤١).

سَرَبَ: ذهب على وجهه في الأرض، ورُوي (شرب أيضاً). والقَصَّار: المبيّض للثياب، والذي يهين النسيج بعد نسجه ببلّهِ ودقّه بالقَصَرة (قطعة من الخشب) قديماً، ليصبح صالحاً للطّي.

٩٣- (إنما طعام فلان القَفْعاءُ والتأويل):

القَفْعاء: شجرة لها شوك. والتأويل: نبتٌ يعتلفه الحمار.

مضربه: قال الميداني^(١): يضرب لمن يُستبَلد طبعه، أي: أنه بهيمةٌ في ضعف عقله، وقلة فهمه.



(١) مجمع الأمثال (١: ٧٦).

من الأمثال الحمارية

- ١١ -

٩٤- (حمار طيّاب):

هو طيّاب السَّقاء. كان له حمارٌ قديمٌ الصَّحبة^(١) ضعيف الحمله، شديد الهزال، ظاهر الانخزال، كاسف البال، يسقي عليه، ويَرْفُقُ به (أي: يرتفق به ويستعين في قضاء حوائجه) ويرتزق منه، مدةً طويلة من الدهر، وكان عُرْضةً لشعر أبي غلاله المخزومي، كما أن شاة سعيد كانت عرضةً لشعر الحمدوني، ولأبي غلاله في وصفه بالضعف، والتوجع له من الخسف، نَيْفٌ وعشرون مقطوعةً، أوردتها كلها حمزة الأصفهاني في كتابه «مضاحك الأشعار» رتبه على حروف الهجاء، من ذلك^(٢): مُقسماً - طلباً للاضحاك - بغير الله قوله:

أقسمت (بالطاس والمُدام)	وصحبة الفتية الكرام
أن لست أبكي على رسوم	غيرها هاطلُ الغمام
لكن بكائي على حمار	موكل الجسم بالسَّقام
قد ذابَ ضرّاً، ومات هزلاً	فصار جلدأً على عظام

(١) ثمار القلوب (ص ٣٦٦).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٦٧).

ومرَّ يوماً به شعيرٌ مقدار كفين للحمام
وجمل قتّ لشاة قوم كلاهما في يدي غلام
فطلّ من فرحة يغني وقال: قد جاءني طعامي
يا زائرنا من الخيام حياكم الله بالسلام
لم تطرقاني وبى حراك إلى حلال، ولا حرام؟

٩٥- (ضَرَطُ ذَلِكَ):

مورده: قال في «مجمع الأمثال»^(١): تزعمُ العرب أن الأسد رأى الحمار، فرأى شدة حوافره، وعظم أذنيه، وعظم أسنانه وبطنه، فهابه، وقال: إنَّ هذا (الدابة) لمنكر، وإنه لخليق أن يغلبني، فلو زُرته ونظرتُ ما عنده، فدنا منه، فقال: يا حمار، أرايت حوافرك هذه المنكرة، لأي شيء هي؟ قال: للأكم. فقال الأسد: قد أمنتُ حوافره، فقال: أرايت أسنانك هذه، لأي شيء هي؟ قال: للحنظل. قال الأسد: قد أمنتُ أسنانه. قال: أرايت أذنيك هاتين المنكرتين، لأي شيء هما؟ قال: للذباب. قال: أرايت بطنك هذا، لأي شيء هو؟ قال: (ضَرَطُ ذَلِكَ) فعلم أنه لا غناءَ عنده، فافترسه.

مضربه: يُضرب لما يهول منظره، ولا معنى وراءه.

٩٦- (ضَرَطُ وَرْدَانٍ بَوَازِ قِيٍّ):

مورده: قال في «مجمع الأمثال»^(٢): إن وَرْدَانَ اسم حمار. والقِيُّ: الفلاة. مضربه: يُضرب لمن يخاصم غيره في باطل.

(١) مجمع الأمثال (١: ٤٢٠).

(٢) المصدر السابق (١: ٤٢٢).

٩٧- (كطالب القرن الحمار):

قال في «مجمع الأمثال»^(١): قال الشاعر:

كمثل حمارٍ كان للقرن طالباً فآبَ بلا أذن، وليس له قرنٌ

مضربه: يُضرب في طلب الأمر يؤدي صاحبه إلى تلف النفس.

قلت: وجاء هذا المثل الحماري تنمّةً لمثلٍ آخر هو: (كطالب القرن جُدعتُ أذنه).

مضربه: هو ما تقدم من الخسارة عند الطمع.

وهو شبيهٌ بما قالته العرب: (ذهب النعام يطلب قرناً فجُدعتُ أذنه)، ولذلك

يقال له: (مُصَلَّمُ الأذنين) وفيه يقول الشاعر:

مثلُ النعامة كانت وهي سائمةٌ أذناء، حتّى زهاها الحينُ والجُبْنُ

جاءت لتشري قرناً، أو تعوّضهُ والدهرُ فيه رباحُ البيع، والغبنُ

ف قيل: أذناك ظلم، ثُمّت اصطُلِمْتُ إلى الصّماخ، فلا قرن، ولا أذنُ

(أذناء: طويلة الأذن. الحين: عظم القدم. الجبن: ضد الشجاعة. رباح البيع: ربحه.

الغبْنُ: خسارته. اصطُلِمْتُ: جُدعت. الصّماخ: قناة الأذن التي تفضي إلى طبليها).

٩٨- (لأضربنه ضرب أوابي الحمر):

قال الميداني^(٢): حمارٌ آب، أي: حرون يأبى المشي، جمعه: أواب.

مضربه: يُؤتى به في مجال التهديد. فإن الحمار الحرون لا يفارق حرّنه إلا بعد ضربٍ

شديدٍ متوالٍ.

(١) مجمع الأمثال (٢: ١٤٠).

(٢) المصدر السابق (٢: ١٨٠).

٩٩- (يحمل حالاً، وله حمار):

الحال: الكارئة، وهي ما يحمله القَصَّار على ظهره من الثياب، والمفترض فيه أن لا يتعب نفسه بحملها، بل يحملها على ظهر حماره، فما يفعله دليل غبائه وضعف تفكيره. مضر به: يُضرب لمن يرضى بالدون من العبث، على أن له ثروة ومقدرة.

١٠٠- إذا ما حمارُ السوء لم يأتِ حِمْلُهُ نِفاراً، فأذنِ الحِمْلُ منه وَحْمَلِ

هذا مثلٌ جاء في بيتٍ كاملٍ من الشعر، أورده صاحب^(١)، قال: وأخذ معاوية معنى هذا المثل فقال: لو أن بني وبين الناس شعرةً ممدودةً ما انقطعت، لأنني إذا مدُّوا أرسلت، وإذا أرسلوا مددت.

مضر به: يُضرب في حسن سياسة الناس.

١٠١- (يأكل جزرة فوق حمار، خيرٌ من مائة دينار):

أصله كما في «جمهرة الأمثال»^(٢): أن رجلاً رأى العتابي على حمارٍ ممتازٍ خيرٍ من مئة دينار ويده جزرة يأكلها، فقال له: ما هذا يا عتابي؟ فقال: إذا ذهب من ترجوه، فالناس أقل من النقد.

مضر به: يُضرب فيمن يتبدل لفقدان الواهب إلى مولٍ.

١٠٢- قال الشاعر:

لو كان حوض حمارٍ ما شربت به إلا بإذن حمارٍ آخرَ الأبدِ
لكنه حوضٌ من أودى بإخوته ريبُ الزمان، فأضعى بيضة البلدِ

(١) جمهرة الأمثال (١: ٦٥).

(٢) المصدر السابق (١: ١٢٩).

قال في جمهرة الأمثال^(١): أي: لو كان حوضي حوض حمارٍ من الحمير، لما شربت منه إلا بإذن الحمار الآخر، لقلّتك وذلتك، ولكن وجدت حوضي حوض رجلٍ منفرد أودى بإخوته الدهر، فاجترأت عليه. هكذا فسر البيتين، ثم قال: والصحيح أن حماراً هنا: اسم رجلٍ بعينه.

١٠٣- قال الشاعر^(٢):

فإنك والفخار بأمّ عمرو كمن باهى بثوب مستعارٍ
كذات الحذج تبهج أن تراه وتمشي أو تسير على حمارٍ
قلت: يُساقُ البيتان فيمن تحت يده شيءٌ ولا ينتفع به؛ لأنه لا يملكه.

١٠٤- صبر الحمار:

قيل لبزرجهر: بم أدركت ما أدركت من العلوم؟ قال: بيكورٍ كبكور الغراب، وصبرٍ كصبر الحمار، وحرصٍ كحرص الخنزير.

١٠٥- أخلف من ولد الحمار:

يريدون به البغل؛ لأنه لا يشبه أباه ولا أمه.

وعن صاحب كتاب «أخبار الحمير» نقلاً عن كتاب «إبتلاء الأخيار»: أن عيسى عليه السلام لقي إبليس وهو يسوق خمسة أحمرٍ عليها أحمال، فسأله عن الأحمال، فقال: تجارةٌ أطلب لها مُشترِئِينَ، قال: وما هي التجارة؟ قال: أحدها الجور. قال: ومن يشتريه؟ قال: السلاطين. قال: والثاني: الكبر. قال: ومن يشتريه؟ قال: الدهاقين. قال:

(١) جمهرة الأمثال (١: ٢٣٢).

(٢) المصدر السابق (٢: ١٠١).

والثالث: الحسد. قال: ومن يشتريه؟ قال: العلماء. قال: والرابع: الخيانة. قال: ومن يشتريها؟ قال: عمال التجار. قال: والخامسة: الكيد. قال: ومن يشتريه؟ قال: النساء.



من الأمثال الحمارية

- ١٢ -

إذا كان ما أوردناه من أمثالٍ حتى الآن، باللغة العربية الفصيحة، فإن اللهجة العامية أيضاً تتضمن مجموعةً من الأمثال الحمارية، التي كان الناس وما يزالون يستعملونها في تعاملهم اليومي، ويتبادلونها بينهم في المناسبات المختلفة، وفي شتى الشؤون، جمعت منها ما أمكنني جمعه.

وقبل أن نشرع في إيرادها، ننبه على أن بعضها جاء باسم الدابة أو البهيم، وهي تسمياتٌ شائعةٌ بين العوام شيوعاً يدل على فصاحتها، ونحبّ أن نؤكد لها ببعض النقول عن الثعالبي في «فقه اللغة».

قال في (ص ١): وكل شيءٍ دبّ على وجه الأرض فهو دابة. وكل ما امتير عليه من الإبل والخيل والحمير فهو غير. وكل دابة استعملت من إبلٍ وبقيرٍ وحمير، ورقيق، فهو نَحَّة، ولا صدقة فيها. (والنَحَّة: العوامل).

وقال في (ص ٩): ولد كل ذات حافر: نتوج، وعقُوق.

وقال في (ص ١٢): سَنَق الدابة بمنزلة اتِّخام الإنسان، قال الأعشى:

ويأمرُ (لليحمور) في كل ليلةٍ بتبني وتعليق، فقد كاد يَسْنُقُ

وفي (ص ١٣٥): الدواب يقع على كل ماشٍ على الأرض عامةً، وعلى الخيل والبغال والحمير خاصةً.

وقال في «المعجم الوسيط»: البهيمة كل ذات أربع قوائم من دواب البر والبحر، ما عدا السباع، جمعها: بهائم.

قلت: ولكن استعمال العوام خصها في كثير من البلاد العربية بالحمار، وبخاصة إذا وضعها في مقابل الحيوانات الأخرى، كقولهم في التعبير عن صغر المكان وضيق مساحته: (مربط بهيم وذيلو برّه).

وهذا يعني أنني سأقبل الأمثال التي تردني بهذه التسميات.

١- (موت يا حمار حتى يجيك العليق):

العليق: العلف من شعير ونحوه. قال المتنبي:

فأُمْسِكْ، لا يُطال له فيرعى ولا هو في العليق، ولا اللجام

مضربه: يُضرب في الضيق بطول الانتظار.

٢- (استنى يا حمار حتى يجيك الربيع):

هو كالمثل السابق.

٣- (اللي ما يغار حمار):

مِشْتَمّ منه أن العَيْر لا يغار على أنثاه، ولكن هذا المعنى يتناقض مع المثل العربي الذي ذكره أبو هلال العسكري في «جمهرة الأمثال»^(١): (أغير من عَيْر).

٤- (الشاطرة تغزل برجل حمار):

ومثله قولهم: (الجيدة تغزل بجريّدة):

مضربه: يُقال فيمن يحقق أهدافه بوسائل بسيطة، وفي الحث على الإنجاز.

(١) جمهرة الأمثال (٢: ٧٦).

٥- (فلان زي حمار النُّورة):

هذا مثلٌ مديني. والنُّورة: الحص، ويسمى المخصّص عند أهل المدينة: نَوَّاراً. وتُعرَف المناطق الشمالية من المدينة بالحص، يقطع، ويحرق في حواريق: جمع حاروق، وتسمى مناطقه تلك بالمصانع، ثم يُنقل بوساطة الحمير ذات المواصفات الخاصة إلى المنزل الذي يراد تنويره، وكان من صفات تلك الحمير أنها تحرن أحياناً وتستعصي عن السير، مهما حشّتها أو ضربتها.

مضربه: يُقال في الرجل يتمسك برأيه فلا يتركه أبداً، حين تفشل معه كل المحاولات.

٦- (فلان حمار سُغل):

أي: أنه يتحمل في عمله الجهد الكثير، كما يتحمل الحمار الأثقال، لا يكل ولا يمل. مضربه: يُضرب في شدة التحمل، ولا يقال إلا في المدح. ومن هنا قيل في آخر خلفاء بني أمية، مروان بن محمد: (مروان الحمار)، قالوا: وذلك لشدة تحمله وقوة صبره.



من الأمثال الحمارية

-١٣-

٧- (زَيِّ هَمَارِ السَّانِيَةِ):

زَيِّ: أصلها: سي - بكسر السين، وتشديد الياء - والسِّي: المثل، قال الخطيئة مادحاً:

فإياكم وحيّة بطن وادٍ هموز النَّاب، ليس لكم بسِيٍّ

أي: ليس لكم بمثل، بل هو أعظم منكم. والسيان: المثلان، وكذلك السَّواءان. ويقال: هم سي، كما يقال: هم سواء، قال الشاعر:

وَهُمُ سِيٌّ إِذَا مَا نُسَبُّوا في سناء المجد من عبد منافٍ
وهذا سِيِّكَ، وسِيِّ فلانٍ: مثله.

السانية، والجمع السواني: ما يُسقى عليه الزرع من الحيوانات، من بعير وغيره كالثور والحمار والبغال، وتشمل الآلة. وقد سَنَتِ السَّانِيَةُ، تَسْنُو سُنُوّاً وسَنايَةً، وَسَناوَةً: إذا سقت. والساني: المستقي، وجمعه سُناة. قال لبيد:

كَأَنَّ دَمَوْعَهُ غَرَبَا سُنَاةٍ يحيلون السَّجال على السَّجالِ

جعل السُّناة: الرجال الذين يسقون بالسواني ويُقبلون بالغروب (الدلو العظيمة) فيحيلونها (أي: يدفُقون ماءها). وفي المثل: (سير السواني سَفَرٌ لا ينقطع).

مضربه: يُضرب في الجهد المبذول الدائم دون مردود.

وسِيَّه: (مثله) قولهم: (زي حمار الطاحونة). فالحماران: آتيان ذاهبان، لا ينفكَّان عن العمل.

٨- (زي حمار العنب شايل ولا طایل):

يُضرب لكل من يكون مطلوبه قريباً، ولكنه لا يستطيع أن يناله لسببٍ من الأسباب، فهو محرومٌ منه، وهذا شبيهٌ بقول الشاعر:

كالعيس في الصحراء يقتلها الظَّما والماءُ فوق ظهورها محمولٌ

٩- (أَخْذُ عَلْقَةٍ وَلَا حِمَارٌ فِي مَطْلَعِ):

معناه: أن هذا الإنسان ضرب ضرباً مبرِّحاً، كما يضرب الحمار في العقبة حين يتردد أو يتخوف صعودها.

مضربه: يُضرب لكل من نزل به سوءٌ بشكلٍ عنيف.

١٠- (سكتنا له، دخل بحماره):

تسامحوا معه، فزادهم مضايقة، ولم يكتف بدخوله منفرداً، بل أسكن معهم حماره.

مضربه: يُضرب فيما ينتج عن التسامح مع اللؤماء.

١١- (حمارتنا العرجاء ولا فرس اللثيم):

يُضرب في الاستغناء عن مساعدة اللؤماء.

١٢- (يموت الحمار ولا يحطُّو على ظهر سرج):

البردعة: للحمار، والسرج: للحصان، ولم تتغير هذه الحال.

يُقال في التئیس مما ليس هو بحق لك.

١٣- (موت الحمير من بخت الكلاب):

تتضايق الكلاب كثيراً من نهيق الحمير، وتنزعج منه، وربما أصابها مغصٌ من ذلك، فلذلك يعدُّ موت الحمير مفيداً للكلاب.

مضربه: يُضرب في إفادة جهةٍ من ضرر الأخرى، على حد قول القائل: (مصائب قوم عند قوم فوائد).

١٤- (حط الحصان جنب الحمار، إذا لم يتعلم نهيقه، فلا صفر من أن يتعلم شهيقه):

يُقال في شدة تأثير القرين على قرينه. ولهذا قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل، وسل عن قرينه
فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يقتدي

١٥- (التكرار يعلم الحمار):

هذا المثل قائمٌ على أساس التسليم بغباء الحمار وشدة جهله. ويلطفها بعضهم فيقول: (التكرار يعلم الشُّطار).

يُضرب في فائدة التكرار، وذلك على حد قول الآخر: (في الإعادة إفادة).

١٦- (كل صغير محبوب إلا صغير الحمير):

يُقال في تكريره ما ينبغي أن يجب.

١٧- (ما تلاقي الغنَج إلا عند الحمير العُرج):

يُضرب في الجمع بين شرّين.

١٨- (حرّ لا يكفر):

مورده: هذا المثل سوري، وأصله أن صديقَيْن كانا مشتركين في التجارة، بائعين

متجولين (دوّاجين) بين القرى، وكان أحدهما مسيحياً والآخر مسلماً، وذات ليلة، وعند دخول وقت صلاة الفجر، والسكون يملأ المكان، ويصل الأرض بالسما، انطلق صوت المؤذن لصلاة الفجر، فتخلل بحلاوته ورقته خوالج الرجل المسيحي، وتسلفت معه سَكينة الإيمان إلى قلبه، فأعلن لصديقه إسلامه، وازدادت عرى الأخوة بينهما فمةً ووثوقاً، وبعد مرور فترةٍ من الزمن، مرّاً على قريةٍ أخرى، فإذا بالمؤذن يذكر بسورة لقمان، فقال المسلم للحمار الذي كانا يحملان عليه بضاعتها: (حَرِّ لا يكفر)، يحثه على السير، حتى لا يؤدي هذا الأذان إلى خروج صاحبه من الإسلام، كما كان الأذان الطريّ الحنون سبباً في دخوله له.

وقصة هذا المثل تؤكد علينا أن نتخير المؤذنين من أصحاب الأصوات الحسنة المؤثرة، التي تبعث على الخشوع، ولا تكون عامل تنفير، وإذا كان ذلك مطلوباً في المؤذن، فإنَّ من باب أولى أن يكون مطلوباً بشكلٍ أوكد في الإمام.

مضر به: يُضرب في الجذب والتنفير.

١٩- (ما قدر على الحمار، قدِرْ على البردعة):

يُضرب فيمن لم يستطع ترويض الصعب والحصول عليه، فيعتمد إلى الأدنى والأقل شأناً، ويتحول إليه.

٢٠- (اربط الحمار محلّ ما ينبغي صاحبه):

يُقال في الحث على تنفيذ ما يريده صاحب العمل أو مالك الشيء، والحرص على أدائه وفق هواه، إما لأنه أدري بما يصلح له، وإما لأنه في جميع الأحوال هو صاحب القرار.

٢١- (مربط بهيم وذيلو لَبْرَه):

أشرنا إليه في المقدمة.

٢٢- (في النهار دابة، وفي الليل شابة):

يضرب في الذي يستثمر الأشياء في جميع أحوالها، ويستنزف ما فيها من ضرورة النفع.

٢٣- (وقف حمار الشيخ في العقبة):

كناية عن المرور بموقف حرج.

٢٤- (حالة الكرموص في العديلة، والبهيم نكاس):

(الكرموص: التين. العديلة: العذل، وهو الخُرج ونحوه، نكاس: الحمار يخفض رأسه ويضرب برجليه الخلفيتين في الهواء، وينتج على ذلك تعجن التين وخرابه).

* * *

لفظُ الحمار في القرآن الكريم

وكغيره من مخلوقات الله، لا غرابة أن يرد اسمه في القرآن الكريم، للتعبير عنه أو به، وذلك في خمس آياتٍ مباركاتٍ هي:

١- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] الذين كُلفوا بالعمل بالتوراة هم اليهود، ولم يَحْمِلُوهَا، أي: لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وفق ما جاء من وصفه في التوراة، فلما تركوا العمل بها، ولم يؤمنوا بمحمد، ضرب الله لهم مثلاً لعلهم يتَّعظون. قال الخازن: وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لليهود الذين أعرضوا عن العمل بالتوراة وبالإيمان بمحمد ﷺ، شبه اليهود حيث لم ينتفعوا بها في التوراة الدالة على وجوب الإيمان بمحمد ﷺ، بالحمار الذي يحمل الكتب ولا يدري ما فيها. وهذا المثل يلحق كل من لم يفهم معاني القرآن ولم يتدبره، ولم يعمل بما فيه، وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه، لذا كان ميمون بن مهران يقول: يا أهل القرآن، اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم!

هو تشبيه حالة بحالة، وهو ما يعرف عند البلاغيين بتشبيه التمثيل أو المركب. ويلاحظُ أن الحمار اختير هنا لغبائه وظهور بلادته.

وقد عَقَّب القرآن على حال هؤلاء اليهود بما يدل على الذم والتشنيع عليهم، لأنهم يتعمدون إنكار ما حُمِّلوه، وذلك قوله تعالى: ﴿بَنَسْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَآلَهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] كما نلاحظ أن الحمار هنا للحمل لا للركوب.

٢- قوله تعالى: ﴿أَوَكَلَّيْكَ مَرْءً عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۖ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ شَيْئٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة: ٢٥٩﴾.

قال العلامة الجمل^(١): القرية هي بيت المقدس، والرجل هو عُزير، وكان مرّ بها راكباً حماره، ومعه سلة تين وقدر عصير، بعد أن خرّ بها بختنصر، والعروش: السقوف، وفي الاستفهام بآتي اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي، وتعجبٌ منها.

وأورد (الجمل) قصة عزير فقال: إن عزيراً كان من أهل هذه القرية التي هي القدس، من جملة من سباهم بختنصر، فلما خلص من السبي جاء، فرآها على تلك الحالة، وكان راكباً على حمار، فدخلها وطاف بها، فلم يرَ فيها أحداً، وكانت أشجارها مثقلةً بأثمارها، فأكل منها واعتصر لنفسه من العنب، وجعل فضل الفاكهة في سلة، وفضل العصير في زق، ثم ربط حماره بحبلٍ قويٍّ وثيق. وألقى الله عليه النوم، ثم نزع منه الروح، وأمات حماره، وبقي عصيره وتينه عنده، فلما مضت مائة سنة أحيا الله أول ما أحيا منه عينيه، وأبقى سائر جسده ميتاً، ثم أحياه وهو ينظر، ثم نظر إلى حماره وعظامه متفرقة متناثرة.. إلى آخر القصة.

فالهدف من قصة الحمار وصاحبه هو التدليل على صحة قضية الخلق والبعث، في صورة تمثيلية واقعية، يصدق بها كل ذي قلبٍ وعقل، فليس الخبر كالمعاينة. أما محاولة ربط بعض المفسرين موضوع الآية ببني إسرائيل، ففيه نظر! والعبرة على كل حال بالمضمون.

(١) في حاشيته على «تفسير الجلالين» (١: ٢١٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَغْضَضَ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

كان أهل الجاهلية يتمدّحون برفع الصوت، وذلك أمرٌ يتناسب مع بيئتهم الصحراوية الرعوية، وما نزال نلمسه في البيئات البدوية في كل مكانٍ في العالم، بينما أهل الحواضر يتهامون.

وجاء ذكر صوت الحمار هنا للتعبير عن رفع الصوت، وبيان نكارتة مجسدة في الحمار. قالوا: ولم علل النهي عن رفع الصوت بهذا ولم يعلل النهي عن سرعة المشي المسببة لذهاب الهيبة؟

الجواب:

١- أن رفع الصوت يؤذي السامع، ويقرع الصماخ بقوته، وربما يخرق الغشاء الذي في داخل الأذن، وأما سرعة المشي فلا تؤذي، وإن أذت فلا تؤذي غير من في الطريق، والصوت يبلغ من على اليمين وعلى اليسار.

٢- ولأن المشي يؤذي آلة المشي، والصوت يؤذي آلة السمع، وآلة السمع على باب القلب، فإن الكلام ينقل من السمع إلى القلب، ولا كذلك المشي.

٣- وأيضاً، فلأن قبيح القول أقبح من قبيح الفعل، وحسنه أحسن، لأن اللسان ترجمان القلب.

ولما كان رفع الصوت فوق الحاجة منكراً، كما أن خفضه دونها: تماوتاً وتكبراً، وكان قد أشار إلى النهي عن هذا بـ (من)، فأفهم أن الطرفين مذمومان، علل النهي عن الأول بقوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ﴾ أي: أفظع وأشنع وأوحش الأصوات برفعها فوق الحاجة: لَصَوْتُ الْحَمِيرِ، لما له من العلو المفرط من غير حاجة، فإن كل حيوانٍ قد يُفهم من صوته أنه يصيح من ثقل أو تعب، كالبعير، أو لغير ذلك، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح، ولو قُتل لا يصيح، وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق نهيقاً أوله: زفير، وآخره: شهيق.

قال موسى بن أعين: سمعت سفيان الثوري يقول حول هذه الآية: صياح كل شيء تسبيحٌ لله تعالى، إلا الحمار^(١).

والحاصل أن المستبشع هو رفع الصوت بغير مصلحة، كما يفعل الحمار، أما إذا كان لمصلحة فذلك أمر حميد. والآية الشريفة قدمت فكرة الاعتدال في الأصوات عن طريق الاستبشاع لهذا المشهد الحماري المنكر، القائم على أساسٍ من التشبيه.

٤- قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

بدأت الآيات بالامتنان على خلقه بأنه خلقهم وسخر لهم مجموعة من المخلوقات تخدمهم وتوفر لهم المأكل والمشرب والمسكن، كما وفر لهم الخيل والبغال والحمير، للركوب والزينة، فالحمير هنا من نعم الله على الإنسان الواجب شكرها، وهل حدود الانتفاع بالحيوانات المذكورة واحدة، وفي حدود ما ورد به التعليل في الآية وهو الركوب والتزين بها؟

قال في حاشية الجمل: ذهب مالكٌ وأبو حنيفة إلى حصر الانتفاع بهذه الحيوانات في الركوب والزينة، ولهذا حرّمَا أكل لحوم الخيل، مشيرين إلى أن الله حين أحلَّ أكل الأنعام قال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، فهو حين خص هذه للأكل خص هذه الحيوانات بمهمة أخرى هي الركوب والزينة^(٢).

وذهب جماعة من أهل العلم - منهم الشافعي وأحمد - إلى إباحة لحوم الخيل بناءً على حديث أسماء بنت أبي بكر، قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً ونحن بالمدينة فأكلناه، أخرجه الشيخان. وروى الشيخان أيضاً عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل.

(١) حاشية الجمل (٣: ٤٠٦).

(٢) المصدر السابق (٢: ٥٦٠).

وفي رواية أخرى قال: أكلنا زمن خيبر الخيل وحر الوحش، ونهى النبي ﷺ عن الحمار الأهلي.

وقال البغوي: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته. قال: والدليل الصحيح في إباحة لحوم الخيل: أن السنة مبينة للكتاب، ولما كان نص الآية يقتضي أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة، وكان الأكل مسكوتاً عنه، ووردت السنة بإباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير، أخذنا به جمعاً بين النصين.

٥- قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

﴿مُعْرِضِينَ﴾: حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾، وجملة ﴿كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ في محل نصب حال من الضمير المستكن في ﴿مُعْرِضِينَ﴾، فهي حال متداخلة، والمعنى على المشابهة، أي: حال كونهم مشاهير للحمر.

و﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ قُرئ في السبع بكسر الفاء وفتحها، فالأول بمعنى أنها نافرة، والثاني بمعنى نفرها الأسد أو الصياد، إذ القسورة تطلق على الأسد وعلى الصيادين، وأصل القسورة من القسر بمعنى القهر، وواضح أن المقصود هنا: الحمر الوحشية، وقد جيء بها وسيلةً للتشبيه.

* * *

لفظ الحمار في الحديث النبوي

أولاً: في صحيح البخاري:

* عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أقبَلْتُ راكِباً على حمارٍ أتان وأنا يومئذٍ قد ناهَزْتُ الاحتلام، ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِمِنَى إِلَى غَيْرِ جِدَارٍ، فَمَرَزْتُ بَيْنَ يَدَيَّ بَعْضَ الصَّفِّ، وَأَرْسَلْتُ الْأَتَانَ تَرْتَعُ، فَدَخَلْتُ فِي الصَّفِّ، فَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ عَلَيَّ أَحَدٌ^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أما يَحْشَى أَحَدُكُمْ، أَوْ: لَا يَحْشَى أَحَدُكُمْ، إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ، أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ؟»^(٢).

* عن أنس بن سيرين قال: اسْتَقْبَلَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ قَدِمَ مِنَ الشَّامِ، فَلَقِينَاهُ بَعَيْنِ التَّمْرِ، فَرَأَيْتَهُ يُصَلِّي عَلَى حِمَارٍ وَوَجْهُهُ مِنْ ذَا الْجَانِبِ، يَعْنِي عَنْ يَسَارِ الْقِبْلَةِ، فَقُلْتُ: رَأَيْتُكَ تُصَلِّي لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ، فَقَالَ: لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَهُ، لَمْ أَفْعَلْهُ^(٣).

* عن عبد العزيز بن صهيب قال: خَرَجْتُ إِلَى مِنَى يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، فَلَقِيتُ أَنَسًا

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم ٧٤.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم ٦٥٠.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم ١٠٣٦.

رضي الله عنه ذاهباً على حمار، فقلت: أين صلى النبي ﷺ هذا اليوم الظهر؟ فقال: انظر حيث يصلي أمراؤك فصل^(١).

* عن عبد الله بن أبي قتادة، قال: انطلق أبي عام الحديبية فأحرم أصحابه ولم يحرم، وحدث النبي ﷺ أن عدواً يغزوه، فانطلق النبي ﷺ، فبينما أنا مع أصحابه نصححت بعضهم إلى بعض، فنظرت فإذا أنا بحمار وحش، فحملت عليه، فطعته، فأثبته واستعنت بهم، فأبوا أن يعينوني، فأكلنا من لحمه وخسينا أن نقتطع، فطلبت النبي ﷺ أرفع فرسي شأواً وأسير شأواً، فلقيت رجلاً من بني غفار في جوف الليل، قلت: أين تركت النبي ﷺ؟ قال: تركته بتعهن، وهو قائل السقياء، فقلت: يا رسول الله، إن أهلك يقرءون عليك السلام ورحمة الله، إنهم قد خشوا أن يقتطعوا دونك فانظرهم، قلت: يا رسول الله، أصبت حمار وحش، وعندي منه فاضلة. فقال للقوم: كلوا وهم محرمون^(٢).

* عن الزهري، قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أخبره: أنه سمع الصعب بن جثامة الليثي، وكان من أصحاب النبي ﷺ، يخبر أنه أهدى لرسول الله ﷺ حمار وحش وهو بالأبواء أو بؤدان وهو محرم فردّه، قال صعب: فلما عرف في وجهي ردّه هديتي قال: «ليس بنا ردّ عليك، ولكنّا حُرّم»^(٣).

* عن معاذ رضي الله عنه قال: كنت ردّف النبي ﷺ على حمار يقال له: عفير. فقال: «يا معاذ، هل تدري حقّ الله على عباده، وما حقّ العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حقّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقّ العباد على الله أن لا يعذّب مَنْ لا يشرك به شيئاً»، فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشّر به الناس؟ قال: «لا تبشّرهم فيتكبروا»^(٤).

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم ١٥٤٤.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم ١٦٩٢.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم ٢٤٠٦.

(٤) صحيح البخاري، الحديث رقم ٢٦٤٤.

* عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على إكافٍ عليه قطيفة، وأردف أسامة وراءه^(١).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد، هو ابن معاذ، بعث رسول الله ﷺ، وكان قريباً منه، فجاء على حمار، فلما دنا، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيديكم»، فجاء، فجلس إلى رسول الله ﷺ فقال له: «إن هؤلاء نزلوا على حكمك». قال: فإني أحكم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبي الذرية. قال: «لقد حكمت فيهم بحكم الله»^(٢).

واكثر الحسن من عبد الله بن مرداسٍ حماراً. فقال: بكم؟ قال: بدانقين، فركبه، ثم جاء مرة أخرى فقال: الحمار الحمار، فركبه ولم يشارطه، فبعث إليه بنصف درهم^(٣).

* عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ رهطاً من الأنصار إلى أبي رافع اليهودي ليقتلوه، فانطلق رجلٌ منهم، فدخل حصنهم، قال: فدخلت في مربيطٍ دوابٍ لهم، قال: وأغلقوا باب الحصن، ثم إنهم فقدوا حماراً لهم فخرجوا يطلبونه، فخرجتُ فيمن خرج أريهم أنني أطلبه معهم، فوجدوا الحمار، فدخلوا ودخلت، وأغلقوا باب الحصن ليلاً، فوضعوا المفاتيح في كوةٍ حيث أراها، فلما ناموا أخذتُ المفاتيح ففتحتُ باب الحصن ثم دخلتُ عليه، فقلت: يا أبا رافع، فأجابني، فتعمدتُ الصوتَ فضربته فصاح فخرجت، ثم جئتُ ثم رجعتُ كأنني مُغيثُ فقلت: يا أبا رافع! وغيّرتُ صوتي، فقال: مالك لأمك الويل، قلت: ما شأنك؟ قال: لا أدري من دخل علي فضربني، قال: فوضعتُ سيفي في بطنه ثم تحاملتُ عليه حتى قرعَ العظم، ثم

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم ٢٧٦٥.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم ٢٨١٦.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم ٢٨١٦.

خرجتُ وأنا دهش، فأتيتُ سُلماً لهم لأنزلَ منه، فوقعتُ فوُثِئتُ رجلي، فخرجتُ إلى أصحابي فقلت: ما أنا بيارح حتى أسمع الناعية، فما برحتُ حتى سمعتُ نَعَايا أبي رافع تاجرِ أهلِ الحجاز، قال: فقمْتُ وما بي قلبَةٌ حتى أتينا النبي ﷺ فأخبرناه^(١).

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنَّ رجلاً على عهدِ النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقَّبُ حماراً، وكان يُضحكُ رسولَ الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلدَه في الشراب، فأتي به يوماً فأمرَ به فجلد، فقال رجلٌ من القوم: اللهم العنه، ما أكثرَ ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إنه يحبُّ اللهَ ورسولَه»^(٢).

* حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعيبٌ، عن الزُّهريِّ قال: أخبرني عروةُ بنُ الزبير، أَنَّ أسامةَ بنَ زيدٍ رضي الله عنهما أخبره، أَنَّ رسولَ الله ﷺ ركبَ على حمارٍ على قَطيْفَةٍ فدَكِيَّةٍ، وأردفَ أسامةَ بنَ زيدٍ وراءه يعودُ سعدَ بنَ عبادَةَ ... إلى آخر الحديث^(٣).

ثانياً: في صحيح مسلم:

* عن أنسٍ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبدَ الله بنَ أبي، قال: فانطلقِ إليه وركب حماراً، وانطلق المسلمون، وهي أرض سَبَخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نَتْنُ حمارك، قال: فقال رجلٌ من الأنصار: والله لحمار رسولِ الله ﷺ أطيبُ ريحاً منك، قال: فغَضِبَ لعبدِ الله رجلٌ من قومه، قال: فغَضِبَ لكل واحدٍ منهما أصحابُه، قال: فكان بينهم ضَرْبٌ بالجرِيدِ وبالأيدي وبالنعال، قال: فبلغنا أَنها نزلتُ فيهم ﴿وَلَنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَفْئَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]^(٤).

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم ٢٧٩٩.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم ٦٢٨٢.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم ٤٢٠٠.

(٤) صحيح مسلم، الحديث رقم ٣٣٥٧.

* عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: كان رجلٌ من الأنصار بيته أقصى بيتٍ في المدينة، فكان لا تُحطُّهُ الصلاةُ معَ رسولِ الله ﷺ، قال: فتوجَّعنا له، فقلت له: يا فلان، لو أنك اشتريتَ حماراً يقيك من الرمضاء ويقيك من هوامِّ الأرض، قال: أم والله ما أحبُّ أن بيتي مُطنَّبٌ ببيتِ محمدٍ ﷺ، قال: فحملتُ به حملاً حتى أتيتُ نبيَّ الله ﷺ فأخبرته، قال: فدعاه، فقال له مثل ذلك، وذكر له أنَّه يرجو في أثره الأجر، فقال له النبيُّ ﷺ: «إِنَّ لَكَ مَا احْتَسَبْتَ»^(١).

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أُتيتُ بالبُرّاق، وهو دابةٌ أبيضٌ طويلٌ فوقَ الحمار ودونَ البغل، يَضَعُ حافره عندَ منتهى طرفه»^(٢).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: يا آدم، فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ» .. إلخ .. وفي آخرِ الحديث: «والذي نفسي بيده، إني لأطمعُ أن تكونوا ثلثَ أهلِ الجنة»، فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: «والذي نفسي بيده، إني لأطمعُ أن تكونوا شطرَ أهلِ الجنة، إنَّ مثلكم في الأممِ كمثلِ الشعرة البيضاء في جلدِ الثور الأسود أو كالرقمة في ذراع الحمار»^(٣).

* عن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ بمكة وهو بالأبطح في قبةٍ له حمراء من آدم، قال: فخرج بلال بوضوئه فمِن نائلٍ وناضح، قال: فخرج النبيُّ ﷺ عليه حُلَّة حمراء كَأَنِّي أنظرُ إلى بياض ساقيه، قال: فتوضأ، وأذن بلال، قال: فجعلتُ أتَّبِعُ فاهُ ها هنا وها هنا يقول يميناً وشمالاً، يقول: حيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح، قال: ثم رُكزتُ له عِزَّةً، فتقدَّم فصلَّى الظهر ركعتين يمر بين

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم ١٠٦٦.

(٢) صحيح مسلم، الحديث رقم ٢٣٤.

(٣) صحيح مسلم، الحديث رقم ٣٢٧.

يديهِ الحمارُ والكلبُ لا يَمْنَعُ، ثم صلى العصر ركعتين، ثم لم يَزَلْ يصلي ركعتين حتى رَجَعَ إلى المدينة.

قال شُعبة: وزاد فيه عونٌ عن أبيه أبي جُحيفة: وكان يُمَرُّ من ورائها المرأة والحمار^(١).

* عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نهى عن أكل لحومِ الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ^(٢).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاخَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهيقَ الحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا»^(٣).

* عن أُسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما قال: قيل له: ألا تدخل على عثمانَ فتكلِّمَه؟ فقال: أَتَرُونَ أَنِّي لَا أَكَلِّمُهُ إِلَّا أَسْمِعُكُمْ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا دُونَ أَنْ أَفْتَحَ أَمْرًا لَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ، وَلَا أَقُولُ لِأَحَدٍ يَكُونُ عَلَيَّ أَمِيرًا: إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ، بَعْدَ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ أَمُرُّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»^(٤).

* عن جابر رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مرَّ عليه حمارٌ قد وُسمَ في وجهه، فقال: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ»^(٥).

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم ٧٧٧.

(٢) صحيح مسلم، الحديث رقم ٣٥٨٣.

(٣) صحيح مسلم، الحديث رقم ٤٩٠٨.

(٤) صحيح مسلم، الحديث رقم ٥٣٠٥.

(٥) صحيح مسلم، الحديث رقم ٣٩٥٣.

ثالثاً: «جامع الترمذي»:

* عن أبي قتادة رضي الله عنه، أنه كان مع النبي ﷺ، حتى إذا كان ببعض طريق مكة تخلف مع أصحاب له محرمين وهو غير مُحَرَّم، فرأى هماراً وخشياً فاستوى على فريسه، فسأل أصحابه أن يناولوه سوطه فأبوا، فسألهم رُمحه فأبوا عليه، فأخذه ثم شدد على الحمار فقتله، فأكل منه بعض أصحاب النبي ﷺ وأبى بعضهم، فأدركوا النبي ﷺ فسألوه عن ذلك فقال: «إنما هي طعمة أطعمكموها الله»^(١).

* عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجبة صوف وكُمّة صوف وسراويل صوف، وكانت نعلاه من جلد حمار ميت»^(٢).

رابعاً: صحيح ابن حبان:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يُغض كل جعظري جواظ سخاب بالأسواق، جيفة بالليل، همار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة»^(٣).

* قال ابن عباس رضي الله عنهما: لقد جئت أنا وغلّام من بني عبد المطلب مرتدّفين على حمار، ورسول الله ﷺ يصلي بالناس في أرض خلاء، فتركنا الحمار بين أيديهم، ثم جئنا حتى دخلنا بينهم، فما بالى بذلك^(٤).

(١) الجامع الكبير للترمذي، الحديث رقم ٧٧٦.

(٢) الجامع الكبير للترمذي، الحديث رقم ١٦٥٦.

(٣) صحيح ابن حبان، الحديث رقم ٧٢.

(٤) صحيح ابن حبان، الحديث رقم ٢٤٢٢.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جُثَامَةَ أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَجْزَ حِمَارٍ وَحَشٍ بِقَدِيدٍ وَكَانَ مُحْرَمًا، فَزَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (١).

خامساً: سُنَنُ الدَّارِقُطْنِيِّ:

* عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِالنَّاسِ، فَمَرَّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حِمَارٌ، فَقَالَ عِيَّاشُ بْنُ أَبِي رِيْعَةَ: سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْمَسْبُوحُ أَنْفَاءً؟ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»، قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي سَمِعْتُ أَنَّ الْحِمَارَ يَقْطَعُ الصَّلَاةَ، قَالَ: «لَا يَقْطَعُ الصَّلَاةَ شَيْءٌ» (٢).

* عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَقْطَعُ صَلَاةَ الْمَرْءِ امْرَأَةٌ وَلَا كَلْبٌ وَلَا حِمَارٌ، وَادْرَأْ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ مَا اسْتَطَعْتَ» (٣).

* عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يَقُولُ: جَاءَ الْأَسْلَمِيُّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ أَصَابَ امْرَأَةً حَرَامًا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَفِيهِ قَوْلُ الْأَسْلَمِيِّ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أُرِيدُ أَنْ تَطْهِّرَنِي، فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فُرْجَمَ، فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لَصَاحِبِهِ: انْظُرْ إِلَى هَذَا الَّذِي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَدْعُهُ نَفْسُهُ حَتَّى رَجَمَ الْكَلْبَ، فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً حَتَّى مَرَّ بِجِيْفَةِ حِمَارٍ شَائِلٍ بِرِجْلِهِ فَقَالَ: «أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟». قَالَا: نَحْنُ ذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «انْزِلَا فَكُلَا مِنْ جِيْفَةِ هَذَا الْحِمَارِ سَهْمًا»، فَقَالَا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، مَنْ يَأْكُلُ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: «فَمَا نِلْتُمَا مِنْ عَرَضِ أَخِيكُمَا أَنْفَاءً أَشَدُّ مِنْ أَكْلِ الْمَيْتَةِ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ الْآنَ لَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْغَمِسُ فِيهَا» (٤).

(١) صحيح ابن حبان، الحديث رقم ٤٠٤٦.

(٢) سنن الدارقطني، الحديث رقم ١٣٩٦.

(٣) سنن الدارقطني، الحديث رقم ١٤٠١.

(٤) سنن الدارقطني، الحديث رقم ٣٤٩١.

سادساً: سننُ البيهقيِّ الكبرى:

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جئتُ أنا وغلأمٌ من بني هاشم أو بني عبد المطلب مرتدقينِ على حمارٍ ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ يصلي بالناس في خلاء، فنزلنا عن الحمار وتركناه بين أيديهم فما بالاه، قال: وجاءت جاريتان من بني هاشم تشتدان ورسول الله ﷺ يصلي بالناس، فاقتلتا فأخذهما، فنزع إحداهما من الأخرى فما بالاه^(١).

* عن أبي المليح الهذلي: أنه كتب إلى أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود يسأله عن المحرم يصيب حمار وحشٍ أو نعامةً أو بيضَ نعامة، وعن الجرادة يصيبها المحرم، فكتب إليه: أما المحرم يصيب حمار وحشٍ ففيه بدنة، وفي النعامة بدنة، وفي بيض النعامة صيامٌ يومٍ أو إطعامٌ مسكين^(٢).

* عن عبد الله بن بُريدة قال: سمعت أبا بريدة يقول: بينما رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يمشي، إذ جاءه رجلٌ معه حمار، فقال: يا رسول الله، اركب وأتأخر، فقال رسول الله ﷺ: «لا، أنت أحق بصدر دابتك مني، ترى أن تجعله لي؟» قال: فإني قد جعلته لك^(٣).

* جاء في حديث الرجم: (فخرج عبد الله بن أنيسٍ من باديته، فرماه بوظيف حمار فصرعه، ورماه الناس حتى قتلوه، فذكر للنبي ﷺ فراره، فقال: «هلاً تركتموه؟ فلعله يتوب»)^(٤).

* عن علي رضي الله عنه قال: إنكم سألتُموني عن الرجل يقول للرجل: يا كافر، يا فاسق، يا حمار. وليس فيه حدٌّ؛ وإنما فيه عقوبةٌ من السلطان، فلا تعودوا فتقولوا^(٥).

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٢: ٢٧٧).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٥: ١٨٢).

(٣) السنن الكبرى للبيهقي (٥: ٢٨٥).

(٤) السنن الكبرى للبيهقي (٨: ٢١٩).

(٥) السنن الكبرى للبيهقي (٨: ٢٥٣).

سابعاً: مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي:

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بأعلى الوادي نريد أن نصليّ قد قام وقمنا، إذ خرج علينا حمار من شعب أبي دب، شعب أبي موسى، فأمسك النبي ﷺ فلم يكبر، وأجرى إليه يعقوب بن زُمعة حتى رَدَّه^(١).

* وعن شقران رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال: رأيت بعيني النبي ﷺ متوجّهاً إلى خيبر على حمار يصليّ عليه^(٢).

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «إِنَّ كُلَّ جَارِيَةٍ بِهَا حَبْلٌ حَرَامٌ عَلَى صَاحِبِهَا حَتَّى تَضَعَ مَا فِي بَطْنِهَا، وَإِنْ كُلُّ حِمَارٍ يُعْتَمَلُ عَلَيْهِ حَرَامٌ لَحْمُهُ، وَإِنَّ الثَّوْمَ حَرَامٌ»^(٣).

* وعن علي رضي الله عنه قال: كُنْتُ قَاعِداً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ الْبَقِيعِ، يَعْنِي: بِقِيعَ الْغُرَقْدِ، فِي يَوْمٍ مَطَرٍ، فَمَرَّتْ امْرَأَةٌ عَلَى حِمَارٍ وَمَعَهَا مَكَارٍ، فَمَرَّتْ فِي وَهْدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَسَقَطَتْ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا بِوَجْهِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهَا مَتَسْرِوَلَةٌ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمَتَسْرِوَلَاتِ مِنْ أُمَّتِي»^(٤).

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَيْفٌ قَائِمَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَقَبِيعَتُهُ مِنْ فِضَّةٍ، وَكَانَ يُسَمَّى ذَا الْفَقَارِ ... ثُمَّ قَالَ: وَكَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ تُسَمَّى الْقَصَوَاءَ، وَكَانَ لَهُ حِمَارٌ يُسَمَّى يَعْفُورٌ^(٥).

(١) مجمع الزوائد (٢: ٦٠).

(٢) مجمع الزوائد (٢: ١٦٢).

(٣) مجمع الزوائد (٥: ٤٦).

(٤) مجمع الزوائد (٥: ١٢٢).

(٥) مجمع الزوائد (٥: ٢٧٢).

* عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمه ليلي قالت: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة، أتى عمر بن الخطاب وأنا على بعيري، وأنا أريد أن أتوجه، فقال: أين يا أم عبد الله؟ فقلت: آذيتُمونا في ديننا، فنذهب في أرض الله حيث لا نُؤذَى، فقال: صَحِبَكُمُ اللهُ. ثم ذهب، فجاء زوجي عامر بن ربيعة فأخبرته بما رأيتُ من رقة عمر، فقال: تَرَجِينَ أَنْ يَسْلَمَ؟ والله لا يُسْلَمُ حتى يسلم حمار الخطاب^(١).

* جزءٌ من حديث غزوة الخندق: ... وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، فأتى به على حمارٍ عليه إكافٌ من ليفٍ قد حُمِلَ عليه، وجفَّ به قومه ...^(٢).

* وعن محمد بن سيرين، قال: لقي البراء بن مالك يومَ مُسَيْلَمَةَ رجلاً يقال له: حمار اليمامة، والرجل طوال، في يده سيفٌ أبيض، قال: وكان البراء رجلاً قصيراً، فضرب البراء رجله بالسيف فكأنها أخطأه، فوقع على قفاه، قال: فأخذت سيفه، فأغمدت سيفي فيما ضربت به إلا ضربةً واحدةً حتى انقطع، فألقيته وأخذت سيفي^(٣).

وعن ابن شهابٍ في تسمية من استشهد يوم اليمامة من المسلمين الأنصار ثم من بني ساعدة: أسيد بن يربوع، ومن الأنصار ثم من بني ساعدة: سعد بن حمار، حليفٌ لهم^(٤).

* وعن أبي تيممة الهجيمي قال: بينما أنا على حمار لي، فلقيتُ رسولَ الله ﷺ، فتأخرت على عَجْزِ الحمار، فقلت: بأبي وأمي يا رسولَ الله اركب، قال: «أنت أحقُّ بصدر حمارك». قلت: يا رسولَ الله، الحمار لك. فركب رسول الله ﷺ على مقدمه، وركبت أنا على عجزه^(٥).

(١) مجمع الزوائد (٦: ٢٤).

(٢) مجمع الزوائد (٦: ١٣٧).

(٣) مجمع الزوائد (٦: ٢٢٣).

(٤) مجمع الزوائد (٦: ٢٢٢٤).

(٥) مجمع الزوائد (٨: ١٠٨).

* وعن شهاب بن عباد، أنه سمع بعض وفد عبد القيس وهم يقولون: قَدِمْنَا على رسول الله ﷺ فاشتد فرحهم بنا، فلما انتهينا إلى القوم، أوسعوا لنا فقعدنا، فرحب بنا النبي ﷺ ودعا لنا، ثم نظر إلينا فقال: «من سيّدكم وزعيمكم؟» فأشرنا جميعاً إلى المنذر بن عائد، فقال النبي ﷺ: «أهذا الأشج؟» فكان أول يوم وُضِع عليه هذا الاسم لضربة بحافرٍ حمار.. إلخ الحديث^(١).

* وعن عبيد الله بن زياد الحضرمي قال: لقي مالك بن دينار سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو راكبٌ على حمار ساقطة أذناه، رثَّ السرج والثياب، فقال له سالم: ممن الرجل؟ فقال له: منك وإليك ومن بعض مواليك. فقال: حدّثني أبي عن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يخذله ولا يخونه»^(٢).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً من بني عبس يُقال له: خالد بن سنان، قال لقومه: أنا أطفئ عنكم نار الحرتين. فقال له عمارة بن زياد، رجلٌ من قومه: والله ما قلت لنا يا خالد قطُّ إلا حقاً، فما شأنك وشأن نار الحرتين، تزعم أنك تطفئها؟ قال: فانطلق معه عمارة بن زياد في ناسٍ من قومه حتى أتوها وهي تخرج من شقِّ جبل في حرة يُقال لها: حرة أشجع، فخطَّ لهم خالد خطةً فأجلسهم فيها وقال: إن أبطأت عنكم فلا تدعوني باسمي، فخرجتُ كأنها خيلٌ سُقِرَ يتبع بعضها بعضاً، فاستقبلها خالد يضربها بعصاه ويقول: بدا بدا كل مها مردا زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي تندي، حتى دخل معها الشق فأبطأ عليهم، قال: فقال عمارة بن زياد: والله لو كان صاحبكم حياً لقد خرج إليكم بعد، فقالوا: إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه، قال: فادعوه باسمه، فخرج إليهم أخذاً برأسه، قال: ألم أنهكم أن تدعوني باسمي؟ فقد والله

(١) مجمع الزوائد (٨: ١٧٧).

(٢) مجمع الزوائد (٨: ١٨٥).

قتلتموني، فادفنوني، فإذا مرت بكم الحُمْرُ فيها حمارٌ أبتُرُ فانبشوني، فإنكم ستجدوني حياً، قال: فمرت بهم الحمر فيها حمارٌ أبتُر، فقال: انبشوه، فإنه أمرنا أن ننبشه، فقال عمارة بن زياد: لا تحدّث مُضِرُّ عَنَّا أَنَا ننبش موتانا، والله لا تنبشوه أبداً... إلخ الخبر^(١).

* وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: بعثني رسولُ الله ﷺ فقال: «انطلق حتى تأتي أبا بكر فتجده في بيته جالساً محتبياً، فقل له: إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أبشر بالجنة»، ثم انطلق حتى تأتي الشية، فتلقى عمر فيها على حمار تلوح صلعته فقل له: إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أبشر بالجنة».. إلخ الحديث^(٢).

* عن أبي تيممة الهجيمي، عَمَّنْ كان ردّف رسول الله ﷺ قال: كنت ردّفه على حمار، فعثر الحمار فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظّم في نفسه وقال: صرعتُه بقوتي، وإذا قلت: بسم الله، تصاغرتُ إليه نفسه حتى يكون أصغر من ذباب»^(٣).



(١) مجمع الزوائد (٨: ٢١٣)، باب ما جاء في خالد بن سنان.

(٢) مجمع الزوائد (٩: ٥٥).

(٣) مجمع الزوائد (١٠: ١٣١).

مقاطع قصيرة في الحمير

قال أبو حُزابة الوليد بن حنيفة يمدح طلحة الطلحات:

يا طلحَ يابى مجدك الإخلافا والبخلُ يعترف اعترافا
إن لنا أحمرَةً عجافا يأكلن كل ليلة إكافا

(الأحمره: جمع حمار. والعجاف: الهزيلة، جمع عجفاء على غير قياس. والإكاف: البردعة، أُطلق على العلف للمجاورة، من باب المجاز المرسل، لأنه يُحمل عليه).

وفي استعارة التَّوَلَّب للصبي قال أحد الشعراء:

وذا ت هِذِم عارٍ نَواشِرُها تُصمِتُ بالماء تَوَلِّباً جَدَعَا

وقال شاعرٌ عربيٌّ عن محمد شهاب الدين:

من كان ذا لومٍ مسيء الطبع فلن يحيد عن قبيح الصُّنْعِ
ما انفك يوماً عقرب عن لسع ما لم تذقه النعلُ طعم الصَّفْعِ

والخير لا يرجى من الأشرارِ

أترتجي نصيحة من فظٍّ يبدو غليظ طبعه في اللفظِ
ليس له في آدم من حظٍّ بل طولُ أذنيه لدى ذي اللحظِ

نشهد أنه قد جاء من حمارٍ

وفي اللسان (مادة صَحَم):

الأصحم: الأسود المخالط بغيره، وأنشد يصف حمراً:

كأني ورَحلي إذا رُعْتُها على جَمري: جازئُ بالرمالِ
أو اصحَمَ حامٍ جراً مِيزه حزابيةَ حيدَى بالرحالِ

قال ابن بري: أو أصحَم، في موضع خفض معطوفٍ على ما تقدم.

قال الأصمعي: لم أسمع فعَلَى (يعني جَمري) في مذكرٍ إلا في هذا الحرف فقط.

قال ابن بري: وقد جاء في حرفين آخرين، وهما: حيدَى المذكور، ودَلْظَى: للشديد

الدفع.

منح الحمار: تحت هذا العنوان كتب الأديب السعودي محمد صادق ذياب، في مجلة

(الجديدة) ٢٥/١/١٤٢٣هـ ما يلي:

يظل الحمار دائماً في قفص الاتهام، رغم أنه كائنٌ وديعٌ ومسالٌ وحَمالٌ أسيّة، ولم تنفع محاولات إعادة اعتباره من قبل بعض الكُتّاب، أمثال: توفيق الحكيم وحمزة شحاتة، وغيرهما، فقد ظل اسم الحمار يتكرر في شوارعنا العربية، رغم أنها توشك أن تكون خاليةً من الحمير، إذ لا يزال اسم الحمار سُبَّةً تستوجب أن تسيل على إثرها الدماء، وتستخدم المِعارك.

ومع أن الحمارة زوجة الحمار، تمتلك عيوناً واسعة مكحلةً يُضرب بجملها المثل في بعض المجتمعات، إلا أن إحدى الأدبيات الخليجيات، جعلت منها قضيةً كرامة، حينما وصف عيونها أحد المثقفين العرب بأنها جميلة، وتشبه عيون الجحشة، واضطر جمعٌ من الكتاب والمفكرين أن يفتشوا ليلتها في دروب عُكاظ، المدينة العتيقة بحثاً عن جحشة، ليتأكدوا من براءة وحسن نية ذلك المُغازل الغبي.

لكن أهمية الحمير جاءت هذه المرة على يد مشعوذ في الكويت - كما ذكرت وكالات الأنباء - ببيع مخ الحمير للنساء، ويدّعي أن لها أسرارها (اليانعة) في ترويض الرجال، ورغم إلقاء القبض على ذلك المشعوذ، إلا أنه من المؤكد أن كل الرجال الآن يبحثون في ذاكراتهم عن المرة الأخيرة التي قدمت لهم زوجاتهم طبقاً شهياً من المخ صنعة وجبة الغذاء، وبالنسبة لي فأنا لا أتذكر المرة الأخيرة التي أكلت فيها مخاً، ولكنني أشعر أن ثمة تغيرات قد طرأت على سلوكي، فقد تحولتُ إلى كائنٍ مطيعٍ يعود إلى بيته مبكراً كما يعود كل الأزواج الطيبين.

قال الشاعر:

إذا نهق الحمار وقال شعراً فسمّ الشعر حينئذٍ شعيراً

وقال أحدهم وهو في لحظات ضيقٍ بالحرر البشرية:

وكل ذنبي أنني

آمنت بالشعر

وما آمنت بالشعير

في زمن الحمير...!!

* ومن أشهر الحمير في تاريخ النجف: حمارة الملاً وحيدة، وهي امرأة شاعرةٌ عداة، وكانت - لكثرة مجالسها - قد اضطرت لاتخاذ حمارةٍ تحملها إلى تلك المجالس، وكان يقوم على خدمة الحمارة عبدٌ مملوك، كان يمسك رسن الحمارة في انتظار سيده حتى تخرج من مجالس العزاء.

* وذكر الجبرتي في «تاريخه»: أن العسكر العثماني بالقاهرة، باشروا في سنة ١٢١٧هـ بختف حمير الناس من أولاد البلد (مثل ما يفعله الآن بعض الناس من خطف السيارات)،

فأخفى الناس حيرهم، فكان بعض أولئك العسكر يُنصتُ بأذنه على أبواب الدور، ويصيح: (زر) ويكررها، فينهق الحمار فيؤخذ^(١).

* ولا ننسى أن الحزب الديموقراطي الأمريكي، جعل شعاره: الحمار.

كما أن الحزب الجمهوري الأمريكي هو: الفيل.

* ومن كتاب «جمهرة الأمثال» قال الشاعر^(٢):

فإنك والفخار بأم عمرو كمن باهى بثوبٍ مستعارٍ
كذات الخدج تبتهج ان تراه وتمشي أو تسير على حمارٍ

* وقال الفرزدق يشبه ناقته بحمار الوحش، ثم يسترسل في وصف الحمار، بما يؤكد قوته ونشاطه، لينقل كل تلك الصفات إلى ناقته، فيقول^(٣):

صيداء شاميةٍ حرفٍ كمُشترِفٍ إلى الشخاص من النضغان محجومٍ

(الصيداء: الرافعة رأسها كبراً. الحرف: الناقة الضامرة، أو العظيمة. المشترف:

الفرس المشرف الخلق. النضغان: الضغن. المحجوم: من حجم البعير، أي: جعل على فمه حجاماً، وذلك إذا هاج، خوفاً من أن يعض أحداً).

أو أخدريّ فلاة ظل مرتبئاً على صريمة أمرٍ غير مقسومٍ
جون يؤجل عانات ويجمعها حول الخدادة أمثال الأناعيمِ
رعى بها أشهراً يقرؤ الخلاء بها معانقاً للهوادي غير كمظلومٍ

(١) عجائب الآثار للجبرتي (٣: ١٥٥).

(٢) جمهرة الأمثال (٢: ١٠١).

(٣) المصدر السابق (٢: ١٣٨).

* وقال يهجو أبا عبيدة بن محمد بن عمار ياسر، حين استشفعه في حاجة له عند عمر بن عبد العزيز قبل خلافته، فأبى أبو عبيدة أن يشفع له، وأراد الله أن تُقضى حاجته دون شفاعته:

أمر الأمير بحاجتي وقضائها	وأبو عبيدة عندنا مذمومٌ
مثل الحمار، إذا شددت بسرجه	والى الضراط، وعضه الإبزيمُ
أبت الموالي أن تكون صميمة	ونفتك عن أحسابها مخزومٌ

* وقال يهجو رجلاً من بلعبر^(١):

تمنى هجائي العنبري وخلتني	شديداً شكيمي، عُرضة للمراجم
طراز بلادٍ عن عريج بن جندب	وعن حيٍّ جُنُود حمار القصائم

(القصائم: جمع قصيمة، وهي الرملة تنبت الغضا).

* وقال يهجو قيساً وجريراً:

فلا وأبيك الكلب، إني لعالمٌ	بهم فهم الأدنون يوم التراحم
فقرب إلى أشياخنا إذ دعوتهم	أباك ودعدع بالجداء التمام
فلو كنت منهم لم تعب مدحتي لهم	ولكن حمار وشيئه بالقوائم

(الدعدة: الجري في بطاء والتواء).

* ومر حمارٌ ينهق، فزاحم الفرزدق، فقال^(٢):

ولولا أن تغار بنو كليب	لأشركنا غدانة في الأتان
------------------------	-------------------------

(١) جهرة الأمثال (٢: ٢٩٩).

(٢) ديوان الفرزدق (٢: ٣٣٤).

ولا ينفكُّ ينهقُ في طريق
كليبي عليه مزادتانِ

وقال يهجو بني كليب قوم جرير^(١):

ألا إن اللثام بنو كليبٍ
شرار الناس من حضر وبادٍ
بأرباق الحمير مقودوها
وما يدرون ما قود الجياد

(الأرباق: جمع رَبَق، وهو العروة في الحبل).

وقال في جو النقائص يادر جريراً أيضاً، مفاخرأ وحاطاً من شأن جرير وقومه^(٢):

أولاكَ وعير أمك لو تراهم
بعينك ما استطعت لهم خطابا
رأيت مهابة وأسود غاب
وتاج الملك يلهب التهابا
أتطلب يا حمار بني كليب
بعانتك اللهاميم الرغابا
وطاح ابن المراغة حين مدت
أعتتنا إلى الحسب النسابا

(العير: الحمار، ولعله هنا أراد بها والد جرير. العانة: القطيع من حمر الوحش.

اللهاميم: جمع لهميم، وهو السيد العظيم. الرغاب: جمع رغب، وهو الواسع الخطو،
أو الواسع الجوف).

* وقال في إحدى مناقضاته^(٣):

حمارٌ لهم من بنات الكداد
يُدْهمج بالوطب والمزودِ
فهذا سبابي لكم فاصبروا
على الناخرات، ولم أعتدِ

(١) ديوان الفرزدق (١: ١٤٢).

(٢) المصدر السابق (١: ١١٠).

(٣) المصدر السابق (١: ١٧٥).

(الكدّاد: فحل الحمير. يدهمج: يمشي كأنه مقيد. الناخرات: المصيبات)

* وقال يهجو الكلبيين أيضاً بأنهم أهل حمير، لا أصحابُ خيولٍ وحروب^(١):

أضاءت لك النار الحمار المقيدا	أعد نظراً يا عبد قيسٍ لعلّما
رهاناً ولم يلفوا عن الخيل رودا	حمار كليبين لم يشهدوا به
لألألم نار مصطلين وموقدا	لئن عبت نارين المراجعة إنها
رئيساً ولا عن المنخين مرفدا	إذا أثقبوها بالكّدادة لم تُضئ

(عبد قيس: رجل من عديّ. روّد: جمع رائد، وهو من يرتاد الكلاً والماء. أثقبوها: أوقدوها، ومنها الثقاب. الكدّادة: تغل القدر من سمنٍ ومرق، ونحوهما).

* وقال ضمن علاقته بيزيد بن المهلب بعدد تصالحه معهم^(٢):

سأبى وتأبى لي تميم وربّما	أبيتُ فلم يقدر عليّ أميرُ
كأني ورخلي والمنافئُ ترتمي	بنا، بجُنب الشيطان: حميرُ

(ترتمي بنا: تسير بنا. والشيطان: واديان لبني دوم في ديار بني تميم).

* وقال يهجو رجلاً اسمه أُسيّد^(٣):

سعاها الله بالأشراط حتى	تحنّى نبت عارية وساري
ولو بعنا أُسيّد لم نزدنا	أسيّد قُتّين على حمار

(١) ديوان الفرزدق (١: ١٨٠).

(٢) المصدر السابق (١: ١٩٩).

(٣) المصدر السابق (١: ٣١٢).

* وفي سفالة بعض قبائل قيس عيلان عن بعض قال^(١):

رفعتُ سناني من هوازن إذ دنتُ وأسلمَها من كل رام محاشرة
لقد علمتُ عيلانُ أن الذي رستُ لئيمٌ وأن العير قد فُلَّ حافرة

(المحاشر: السهام المبرية).

* وقال مخاطباً أحدهم، ولم يعينوه^(٢):

يا ابن الحمارة للحمار وإنما تلد الحمارة والحمارُ حمارا
ولو أنَّ الأمَّ من مشى يكسى إذاً ثوباً لرحتَ وقد كُسيَتْ إزارا

* وقال يردُّ على جرير ويناقضه في إحدى مطولاته^(٣):

رأيتُ ابن المراغة حين ذكَّى تحوَّل - غيرَ لحيته - حمارا

(ذكَّى: أسنَّ. تحوَّل ... إلخ، أي: صار حماراً ولكن له لحية. بخلاف الحمار المعروف).

إلاَّ أنه يقول في آخرها:

هجوْتُ صغارَ يربوع بيوتاً وأعظَمَهم من المخزاة عارا
فإنك والرهانَ على كليبٍ لكالمُجري مع الفرس الحمارا

(١) ديوان الفرزدق (١: ٣٢٢).

(٢) المصدر السابق (١: ٣٥٢).

(٣) المصدر السابق (١: ٣٥٧).

* ويقول في هجائه أيضاً من قصيدة أخرى^(١):

يا ابن المراغة إنما جاريتني	بمُسَبِّقِينَ لَدَى الْفَعَالِ قَصَارِ
يا ابن المراغة كيف تطلب دارماً	وأبوك بين حمارة وحمارِ
وإذ الكلاب بني المراغة رَبَّضَتْ	خطرْتُ ورأيتني دارمي وجماري
لن تدركوا كرمي بلئوم أبيكم	وأوابدي، بتنحلّ الأشعارِ
هلاً غداة حبسْتُم أعياركم	بجدود والخيلانِ في إعصارِ

(دارم وجمار: قبيلتان من تميم قوم الفرزدق. الأوابد: أراد بها هنا قصائده. التنحل: السركة. جدود والخيلان: موضعان).

ثم يقول:

فاسأل هوازن إن عند سراتهم	علماً ومجتمعاً من الأخبارِ
فلتخبرتك أن عزة دارم	سبقتك يا ابن مسوق الأعيارِ

* ويقول في إحدى نقائضه مع جرير أيضاً^(٢):

يا ابن المراغة أنت الأُم من مشى	وأذلّ مَنْ لَبَنَانِهِ أَظْفَارُ
إن المراغة مرّغت يربوعها	في اللؤم حيث تجاهد المضمارُ

ثم يقول:

أبكي الإله على بليّة من بكى	جدثاً ينوح على صده حمارُ
-----------------------------	--------------------------

(١) ديوان الفرزدق (١: ٣٥٨).

(٢) المصدر السابق (١: ٣٧٢).

كانت منافقة الحياة، وموتها
فلئن بكيت على الأثان، لقد بكى
خزي علانية عليك وعار
جزعا، غداة فراقها الأعار

(بليّة: المراد نصف بلية، وهو الموضع الذي دُفنت فيه زوجة جرير، واسمها خالدة. والتي رثاها جرير).

* وقال في رثاء الشاعر الأخطل^(١):

زار القبور أبو مالك
وأوصى الفرزدق عند المما
برغم العُداة وأوتارها
تِ بأم جرير وأعارها

* وقال داعياً ضد السَّمِيدْعُ الزهراني الذي رفضته شيوخ بني تميم أيضاً^(٢):

فدى لرؤوسي من تميم تتابعوا
أحكم حروري، من الدين ماري
إلى الشام، لم يرَضُوا بحكم السميّد
أضلُّ وأغوى من حمارٍ مجدّع

* وقال يهجو بني منقر^(٣):

تنابلةً سودُ الوجوه كأنهم
حيرُ بني غيلان إذ ثار صيقُها

(تنابلة: مفردها تنبل، وهو القصير القامة. والصّيق: الغبار).

* وقال في محمد بن منظور الأسدي البصري^(٤):

أته مالك وكُماة عمرو
على القُبِّ المسومة العتاق

(١) ديوان الفرزدق (١ : ٣٨٢).

(٢) المصدر السابق (١ : ٤٠٩).

(٣) المصدر السابق (٢ : ٣٥).

(٤) المصدر السابق (٢ : ٤٧).

بضرب تَنْدُرِ القَصْرَاتُ فيه وطعنٍ مثل أفواه النَّهَاقِ

(تندر: تسقط. القَصْرَات: الأعناق. أفواه النهاق: أفواه الحمير، أي: أن جراح طعنهم واسعةٌ كأفواه الحمير).

* وفي جرير وحمارة يقول^(١):

رأيت جريراً لم يَضَعْ عن حمارة عليه من الثَّقَلِ الذي هو حاملُهُ
أتى الشامَ يرجو أن يبيعَ حمارَهُ وفارسَهُ إذ لم يجد من يبادلُهُ
وجاء بعدلِهِ للذين هما له من اللؤم كانت أورثته أوائلُهُ

* وفي لامِيَّة الشهيرة يقولُ مناقضاً جريراً:

هلاً سألت بني عُدانة ما رأوا حيث الأثان إلى عمودك تُرحلُ
كسرتُ ثنيك الأثانُ فشاهدُ منها بفيك مبيِّنٌ مستَقْبَلُ

وقال في لامِيَّةٍ أخرى ينال من جرير وقومه:

لا يُنْعَتُونَ فيسْتِييُوا نعمةً لهم، ولا يَجْزُونَ بالإفضالِ
يتراهنون على جِداد حميرهم من غاية الغَدَّوان والصَّلصالِ
وكانها مسحوا بوجه حمارهم ذي الرَّقْمَتين جبين ذي العُقَّالِ

* ومما قاله أيضاً في الحمير:

حسبتُ أبا قيسٍ حمارَ شريعةٍ قعدت له والصبح قد لاحَ حاجبُهُ

* * *

(١) ديوان الفرزدق (٢: ١٠٨).

ألا كل بيت بأهلي إمامه حمارٌ وعدلا نحي سمن ونايبِ

* * *

أحكم حروري من الدين مارقٌ أضل وأغوى من حمارِ مجدع

* * *

ولكنهم يلهدون الحمير ردافى على الظهر والقرددِ

* * *

تبع الحمار مكلماً فأصابه بنهيقه من خلفه بنكالِ

* * *

فقلت له رد الحمار فإنه أبوك لثيمٌ رأسه وجحافلُهُ

* * *

يستيقظون إلى نهاق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتارِ

* * *

بني جارم كفوا عنان حماركم ولا تبعثوه في الضلال المضللِ

* نظر أبو نواسٍ إلى الحمار الوحشي، فرآه صلباً، فظاً سريعاً، فقال من قصيدة له^(١):

وأخدرني صلب النواحق صل صال، أمين الفصوص والوظفِ

منفردٌ في الفلاة توسعُهُ رياً وما يختليه من علفِ

ما ترك الموت بعده شبحاً بادٍ بمثل الغلال والشعفِ

* وقال أيضاً^(٢):

(١) الديوان (ص ٥٧٥).

(٢) المصدر السابق (ص ١٥٣).

أهدى لها هب الهجير فحولا	ومكدم يزجي نهائص كالقنا
يسقي مزارع بينها ونخيلا	بزرود أو بمتالع أو ملهم
متبوثا نحو الشرائع جولا	وقد استعد لوردها ذو فترة
أو ثان أنواح بكين فتिला	في لكنة صفراء تحسب رزها

* قالوا: وكان لبشار بن برد حمارٌ يزعم أنه يقول الشعر، وأنه بعد موته رآه في منامه، وروى عنه أبياتاً غزليةً في أتانٍ أبصرها في طريقه عند باب الأصبهاني، وهي^(١):

سدي مل بعناني	نحو باب الأصبهاني
إنَّ بالباب أتاناً	فضلت كل أتانٍ
تيمّني يوم رحنا	بشايها الحسانِ
وبغنج ودلال	سل جسمي وبراني
ولها خدٌ أسيل	مثل خد الشيقرانِ
فبها متٌ ولو عشد	ت إذا طال هواني

فقال له رجلٌ من القوم: يا أبا معاذ. ما الشيقران؟ قال: هذا من غريب الحمير. فإذا لقيتم حماراً فسلوه.

* وقال بشار:

أمقٌ غريبيٌّ كأن قتوده	على مثلثٍ يدمى من الحقب حاجبه
غيورٌ على أصحابه لا يرومه	خليطٌ ولا يرجو سواه صواجه
إذا ما رعى سنين حاول مسحلاً	يجد به تعذابه ويحاوله
أقْبُ نفى أبناء عن بناته	بذي الرضم حتى ما تحس ثوابه

(١) العقد الفريد (٦: ٤٤٢).

* وقال أيضاً:

رعى ورعين الرطب تسعين ليلة
فلما تولى الحر واعتصر الثرى
وطارت عصافير الشقائق واكتسى
وصدَّ عن الشول القريع وأقفرت
ولاذ المها بالظل واستوفض السَّفا
غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى
على أبق والروض تجري مذهبهُ
لظى الصيف من نجدٍ توقد لاهبهُ
من الآل أمثال الملاء مساربهُ
ذرى الصمد مما استودعته مواهبهُ
من الصيف نتاج تحب مواكبهُ
إلى الجأب، إلا أنها لا تخاطبهُ

* وقال جرير:

تغطي نيميرٌ بالعمائم لؤمها
فإن تضربونا بالسياط فإننا
وإن تحلقوا منا رؤوسا فإننا
وكيف يغطي اللؤم طي العمائم
ضربناكم بالمرهفات الصوارم
حلقتنا رؤوسا بالقنا والغلاصم

* وقال حصين بن معاوية:

إذا خالطن هامةً تغلبي
لم نترك نساء بين زهير
فلقن الرأس منه والجبين
على الآسي يحلقن القرونا

* وقال الشماخ^(١) يريد تشبيهه راحلته بحمار وحشٍ يطلب ماءً في شدة القيظ:

كأن قنودي فوق جأب مطرد
من الحقب لاحته الجداد الغوارزُ

(الجداد بالفتح والكسر، وهي التي قلت ألبانها)

(١) الديوان (ص ١٧٥).

* واستعار أحدهم من الشاعر شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد البوصيري حمارته فأعجبته، وأبى أن يردّها إليه، فكتب البوصيري على لسان الحمارة يقول:

يا أيها السيّد الذي شهدت	ألفاظه لي بأنه فاضل
حاشاك أن أجوع في بلد	وأنت بالرزق فيه لي كافل
ألم تكن قد أخذت عارية	من شرطها أن تردّ في العاجل
وكان عزمي عند الوصول بكم	أجمل من أن أساق للحاصل
ما كان مثلي يغيره أحد	قط ولكن سيدي جاهل
لو جرّسوه علس من سفه	لقلت غيظاً عليه يستاهل
طال بي شوق إلى وطني	والشوق داء لا دقته قاتل
وبغيتي أن أكون سائبة	من بلدي في جوانب الساحل
لا تطمّعوا أن أكون عندكم	فذاك ما لا يرؤمه العاقل
وبعد هذا فما يحل لكم	ملكبي فإني من سيدي حامل

فردّها ولم يأخذ الدراهم منه^(١).

* وقال أبو غلاله في (حمار طياب) على سبيل المزاح، وقد نظم فيه نيّفاً وعشرين مقطوعةً أوردّها حمزة الأصبهاني في كتابه (مضحك الأشعار) مرتبةً على حروف الهجاء، فذهب هذا الحمار مثلاً كبغلة أبي دلامة، وسيارة أبي علي، وطيلسان ابن حرب.

(١) ديوان البوصيري (ص ٢٣٧).

* وفي كتاب «التشبيهات» و«أخبار الحمير» المقطوعات التالية^(١):

- ١ -

يا سائلي عن حمارٍ طيابٍ ذاك حمار حليف أوصابٍ
كأنه والذباب يأخذه من كل وجه، نفار دوشابٍ

- ٢ -

وحمارٌ بكت عليه الحميرُ دق حتى به الذباب يطيرُ
كان فيما مضى يقوم بضعف فهو اليوم واقفٌ لا يسيرُ
كيف يمشي وليس يعلف شيئاً وهو شيخٌ من الحمير كبيرُ
يأكل التبن في الزمان ولكن أبعد الأبعدين عنه الشعيرُ
عائناً القَتَّ مرةً من بعيدٍ فتغنّى وفي الفؤاد سعيِرُ
ليس لي منك يا ظلومٌ نصيرُ أنا عبد الهوى وأنت الأميرُ

- ٣ -

أقسمت بالكاس والمدام وصحبة الفتية الكرام
أن لست أبكي على رسوم غيرها هاطل الغمام
لكن بكائي على حمارٍ موكل الجسم بالسقام
قد ذاب ضراً، ومات هزلاً فصار جلدأً على عظام
ومر يوماً على شعير مقدار كفينٍ للحمام
وحيل زُفَّت لشاة قوم كلاهما في يدي غلام

(١) التشبيهات (ص ٣٧١)، وأخبار الحمير (ص ١١٤).

فظل من قُرَّةٍ يغني
يا زائرنا من الخيام
لم تطرقاني ولي حراك
وقال: قد جاءني طعامي
حياكم الله بالسلام
إلى حلال ولا حرام

- ٤ -

حمارٌ أناخ به ضره
يميل من الضعف في مشيه
فأما الشعير فما ذاقه
يغني على ألفت لما يراه
أخذت فؤادي فعذبت به
ودار عليه بذاك الفلك
ويسقط في كل درب سلك
كما لا يذوق الطعام الملك
وقد هزه الجوع حتى هلك
وأسهرت عيني فما حل لك

- ٥ -

لم أبك شجواً لفقد حبي
لكنني قد بكيت حزناً
لو شَمَّ ريح الشعير شَمّاً
أو عاين القت من بعيد
ليس يزول الذي بقلبي
قد ابتلاني بذاك ربي
على حمارٍ لجارٍ جنبي
من غير أكلٍ لقال: حسبي
يوماً لغنى بصوت صبّ
يا من جفاني بغير ذنبٍ

- ٦ -

حمارٌ طيّاب لا تخفى مساويه
مدّوه حتى رأيت الخط يشبهه
أقسمت بالله لولا التين يأكله
ما فيه أكثر مما قلته فيه
من الهزال، وعين الضر تبكيه
في كل شهرٍ لكان الجوع يفتيه

والقت يقتله بالصدِّ والتيه
وأنت في غفلةٍ مما أقاسيه

ما زال يطلب وصلَ القَتِّ مجتهداً
النجم يرحمني مما أراعيه

* وقال الشاعر حيص بيص^(١):

فقلت له رويدك يا حمارُ..!
وأن الليل دهمته نهارُ

وأحمق زانَ ذا عقلٍ بحمقٍ
يرى الخفاش أن الصبح ليلاً

* * *

(١) الديوان (٣: ٢٧٢).

حمارية لابن عنين

ومن ملح ابن عنين (٥٤٩-٦٣٠هـ) قوله يرثي حماراً له مات بالموصل^(١):

لَيْلٌ بِأَوَّلِ يَوْمِ الْحَشْرِ مُتَّصِلٌ	وَمُقْلَةٌ أَبْدَأُ إِنْسَانُهَا خَصِلٌ
وَهَلْ أَلَامٌ وَقَدْ لَاقِيَتْ دَاهِيَةً	يَنْهَدُّ لَوْ حَمَلَتْهَا بَعْضُهَا الْجَبِلُ
ثَوَى الْمَصْكُ الَّذِي قَدْ كُنْتُ أَمْلُهُ	عَوْنًا وَخَيْبَ فِيهِ ذَلِكَ الْأَمَلُ

(الحبل: الجماعة من الناس. المصك: القوي، وكذلك الأصك).

لَا تَبْعُدَنَّ ثُرْبَةً ضَمَّتْ شَمَائِلُهُ	وَلَا عَدَا جَانِبَيْهَا الْعَارِضُ الْهَاطِلُ
لَقَدْ حَوَتْ غَيْرَ مِكْسَالٍ وَلَا رَعِشٍ	إِنْ قَيَّدَ الْقُودَ مِنْ دُونِ السُّرَى الْكَسَلُ
قَدْ كَانَ إِنْ سَابَقَتْهُ الرِّيحُ غَادَرَهَا	كَأَنَّ أَحْمَصَهَا بِالشَّوْكِ يَنْتَعِلُ
لَا عَاجِزاً عِنْدَ حَمْلِ الثَّقَلَاتِ وَلَا	(يَمْشِي الْهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الْوَجَى الْوَجِلُ)
مُكَمَّلُ الْحَلْقِ، رَحْبُ الصَّدْرِ، مُتَنَفِّخُ الدِّ	جَنَيْنٍ، لَا ضَامِرٌ طَاوٍ، وَلَا سَغِلُ

(لا تبعدن: لا تهلكن. القود: الخيل والإبل. السغل: من معانيه: المهزول).

يَطْوِي عَلَى ظَمَأٍ خَمْساً أَضَالِعُهُ	فِي بِيضَةِ الصَّيْفِ وَالرَّمْضَاءِ تَشْتَعِلُ
وَيَقْطَعُ الْمُقْفِرَاتِ الْمَوْحِشَاتِ إِذَا	عَنْ قَطْعِهَا كَلَّتِ الْمَهْرِيَّةُ الْبُزْلُ
فَفِي الْأَبَاطِحِ هَيْقُ رَاعِهِ قَنْصُ	وَفِي الْجِبَالِ الْمُنِيفَاتِ الذَّرَى وَعِلُ

(١) الديوان (ص ١٤٠).

يُرْجَعُ النَّهَقُ مَقْرُونًا، وَيُطْرَبُنِي
لَحْنًا، كَمَا يُطْرَبُ الْمَزْمُومُ وَالرَّمْلُ

(المهرية: نوعٌ معروفٌ بشدة السرعة. البزل: القوي البالغ ثماني سنوات. الهيق: الظليم، وهو ذكر النعام. المزموم والرمل: لحنان).

لَوْ كَانَ يُفْدَى بِهَالٍ مَا ضَنْتُ بِهِ
لَكِنَّهَا خُطَّةٌ لَا بُدَّ يَلُغُهَا
وَإِنِّي لِي بِنِظَامِ الدِّينِ تَعَزِيَّةٌ
وَلَمْ تُصْنِ دُونَهُ خَيْلٌ وَلَا خَوَلٌ
هَذَا الْوَرَى كُلُّ مَخْلُوقٍ لَهُ أَجَلٌ
عَنْهُ وَفِي النَّجْبِ مِنْ أَبْنَائِهِ بَدَلٌ

ولا ندري من يريد بنظام الدين؟

* ولا بن دانيال الموصللي في هجاء له:

وَقَدْ أَبْدَيْتَ لِي أُذُنِي حَمَارٍ
وَلَمَّا أَنْ فَرَرْتَ قَتَلْتَ كُرًّا
وَعَيْنِي كَلْبَةٍ وَسَبَالُ هُرٍّ
وَعُدْتَ فَكُنْتُ ذَا كَرٍّ وَفَرٍّ

* قال الصفي الحلبي يعاتب أحد الأعيان على ترك عيادته^(١):

أَعُودُ حَمَارَكُمِ فِي كُلِّ يَوْمٍ
وَيُمْرِضُنِي التَّأْلَمُ مِنْ جَفَاكُمْ
فَإِنْ يَكُ ذَاكَ حَقٌّ جَزَايَ مِنْكُمْ
فَشُكْرًا لِلْمَحَبَةِ إِذْ حَطَّطْتُمْ
إِذَا مَا ضَرَّهُ مَرَطُ الشَّعِيرِ
فَلَمْ أَرِ عَائِدًا لِي مِنْ زَفِيرِي
لِإِفْرَاطِ الْمَحَبَةِ مِنْ ضَمِيرِي
بِهَا الْأَصْحَابَ عَنْ قَدَرِ الْحَمِيرِ

* * *

(١) الديوان (ص ٥٧٨).

حماريات

* وفي العصر الحديث لفت الحمار نظر بعض الشعراء، فكتبوا فيه جملةً من القصائد، وبقليلٍ من التأمل فيها ندرك أنهم يريدون الحمر الإنسانية، ومن ذلك: ما كتبه الشاعر سعود عواد الحجيلي^(١) في «الأربعاء»^(٢) بعنوان (الحمار الجريء):

الحمار الجريء

أن تكون القيادة للجمال فهو أمرٌ طبيعي، لكن أن يقود الحمار الجمال فهي كارثة، وهذا ما حصل أثناء متابعتي للأخبار في أفغانستان على القنوات الفضائية، فقد شاهدت ذلك حيث رُبطت مجموعةٌ من الجمال (سفن الصحراء) بحمارٍ يقودها وهي تسير بأعناقها الطويلة، رمز الشجاعة والقوة والصبر، خلف هذا الجحش، فتمثلت بهذه الأبيات:

فكم هي من سخریات القَدَرُ	تقود الجمال وأنت حمارٌ
كأنَّ الزمان مضي واندَحَرُ	تقود الجمال أيا ابن الجحوش
تباهي بوضعك بين البشرُ	وتمشي سريعاً أمام الجمالِ
تقود الجيوش وأنت الأغَرُ	ومن خلف ذيلك تمشي الركابُ

(١) محام شرعي وقانوني.

(٢) ص ٦١ بتاريخ ١١/١٠/١٤٢٢هـ.

تقود الجميع لأرض الهلاك
وترفع صوتك عند النهيق
أحقاً أتيت لنشر السلام
أتفخر أنك خير الحمير
تدوس بأقدامك المكرمات
فلا دين عند سليل الأتان
يظل الحمار أسير هواه
فإترك قيادة هذي الجمال
ألا تخش يوماً تهيج الفحول
يعم الكساد بيوع الحمير
فإرجع لوضعك بين الجحوش
والأحياتك سوف تبوش
فمتّع حياتك في غابة
وخلّ الصحاري لعشاقها
فلنّ الفيافي لعوج الرقاب

تخونك عيناك عند النظر
وعند المراغة وقت السفر
وهل جئت فعلاً لدرء الخطر
تود المقام وحسن المقر
وحتى المآذن وقت السحر
ولا ذنب يغفر بعد الكفر
يحب التمرغ بين الحفر
فما حاز جحش نصيب الظفر
وترميك بالزبد مثل الشرر
ويلعن شارون سوق الحمز
بوسط الحقول وماء النهر
لهيب الصحاري يزيغ البصر
لها في بقائك أحلى الأثر
ورواها حين يحلو السمر
وليس لجحش بها مستقر



الحمار الجنرال(*)

طالعت قصيدة (الحمار الجريء) المنشورة في عدد الأربعاء للشاعر سعود بن عداد الحجيلي التي جادت بها قريحته بعد أن رأى تلك الصورة المقلوبة للحمار الذي تصدَّى لقيادة الجمال وهي تسير خلفه بكل صغارٍ وبلا وقار، وقد تفاعلت معها وعارضتها بهذه الأبيات^(١):

ورمز الشموخ إلى المنحدر	حمارٌ يقود بكل افتخارٍ
ويشرب صفواً وتسقى كدر	يقود الجمال بكل اقتدارٍ
ويحظى بسؤدد مجد الدهر	يباهي بمركزه من يغار
وحكم الزمان هو المنتظر	ليبقى الزمان له شاهد
ويلبسه الدهر أحلى الدرر	يسطر بالنور أحلى وسام
إذا جدّ جدّ وحم القدر	وذيل الحمار كوقع الحسام
إذا اشتد كربُّ بأهل المدر	يذود به دون مد العتاق
إذا الموت حاق بأهل الوبر	ويصرم بالذيل صرم السيوف
وطيب الإقامة والمستقر	يقود الجميع إلى المكرمات
ويرسم للعدل أحلى الصور	يعم السلام بأقصى البلاد
وينحسأ أهل الخنا والغجر	يحقق أمناً بعيد المنال
وبالرشد طوراً وبعد النظر	يسوس الجيوش بعقلٍ حكيم

(*) لعبد الرحمن بن بركة البلوي، متوسطة ابن البيطار - ينبع الصناعية.

(١) عدد الأربعاء الموافق ١١ / ١٠ / ١٤٢٢ هـ.

سليلاً الأتان له غايتان يعم السلام ويهنأ البشرُ
وينعم بالأمن كل الأنعام وشر الظلوم مضى واندثرُ
ومن قال إن الجحوش الكرام تخاف الفحول وتخشى القهرُ
ومن رام خزيّاً بمجد الجيوش تثور وتغضب غضبة مُضرُ
وتسحق بالشك كل الجيوش وبالموت تُمنى وكأسِ الثبرُ
وإن أمةً رفعت أنفها ستأكل من روثها والبعرُ
ومن لم يعظم سلام الجحوش يذق من هوان ويصلى سقرُ
ويبقى ذليلاً بمر العصور وفيه الدروس وفيه العبرُ

* وقال أحمد الشدياق في كتابه «الفارياق» يرثي حماره^(١):

رثاء حمار

قد فُجِعت بالأمس بحمارٍ لي، وسألت عنه الجيران فلم يقل أحدٌ منهم: إنه سرقه،
فاكتريتُ منادياً بدرهمٍ فجعل ينادي في الأسواق: ألا قد فرّ اليوم حمار الفارياق وخلّى قيده
في الوتد، فهل منكم من رآه؟ فلم يجبه أحدٌ إلّا بقوله: ما أكثر الحمير الأبقّة اليوم من
بيوت مواليتها! فلما عاد إليّ بهذه البشرى بلغ مني الغيظ كل مبلغ، وآليت أن لا أنظر
بعدها في وجه حمارٍ، سواء كان حقيقياً أو مجازياً. فقد قال بعض أئمة اللغة: إن من
خصائص لغتنا هذه الشريفة دون غيرها أن يُقال للرجل الجاهل: حمار..!، ثم أخذتُ
أرثيه فقلت:

راح الحمار وخلّى القيد في الوتد وما رأى أثره في الناس من أحدٍ

(١) أخبار الحمير، بسام الجابي، ص ١٥٢-١٥٦.

أَمْ مَجْزِي قَيْدِهِ لَوْ كَانَ مِنْ مَسَدٍ
فِيهَا وَأَنْزَلَ عِنْدِي مُنْزَلَ الْوَلَدِ
كَالْطِفْلِ مِنْ شَفَقِ سِرِّهِدُتِهِ بِيَدِي
مَا سُوِّىَ وَلَا عَسَجْدُ خَوْفًا مِنَ الْإِرْدِ
اسْتَقَلْتُ نَوْمًا بِصَوْتِ مَطَرٍ غَرْدِ
حَوْلَ الْجَمَالِ تَبَلُّ الْأَرْضِ بِالزَّبَدِ
أَهْلُ الْجَمَالِ بِمَاءِ الْوَرْدِ وَهُوَ نَدِي
زَفَافِ خَوْدِ إِلَيْهَا بِالْأَمَدِ
يَمُرُّ بِهِ مَعَ أَلِيمِ النَّخَسِ فِي الْكَتَدِ
أَكَانَ فِي رَوْضَةٍ غَنَاءٍ أَمْ جَرْدِ

فَهَلْ أَنَا رَاكِبٌ مِنْ بَعْدِهِ وَتَدَا
أَمْ كَيْفَ أَدْخَلَ دَارًا كَانَ لِي سَكْنًا
سَرَّهْدُتُهُ بِيَدِي كَالْطِفْلِ مِنْ شَفَقِ
وَجِئْتُهُ بِشَعِيرٍ لَا يَخَالِطُهُ
وَكَانَ يَوْقُظْنِي مِنْهُ النَّهَاقُ إِذَا
كَمْ حَادٍ بِي عَنْ مَضِيْقٍ حِينَ أَبْصَرَ مِنْ
وَسَارِبِي فِي طَرِيقٍ بَلَّ جَانِبَهَا
وَكَمْ جَرَى فَارَهَا إِذْ لَاحَ عَنْ بَعْدِ
وَإِذْ تَبَيَّنَ نَعْشًا لِلْجَنَازَةِ لَمْ
مَا ضَلَّ يَوْمًا عَنْ اسْتِقْرَاءِ مَعْلَفَةٍ

(الْجَرْدُ: فُضَاءٌ لَا نَبَاتَ فِيهَا)

مَسْخِيَّةٌ مِثْلُ بَعْضِ الْخَلْقِ عَنْ أَحَدٍ
رَجُلَاهُ عَنْ جُوبٍ وَعَثٍ طَالَ أَوْ جَدَدٍ

قَدْ رَابَنِي حِذْقُهُ حَتَّى ظَنَنْتُ بِهِ
وَمَا شَكَأْتُ مَنْ وَخَزٍ وَلَا ضَعُفْتُ

(المسخية: تحول الصورة إلى أخرى أقبح. الجوب: القطع. الوعث: المكان السهل

تغيب فيه الأقدام).

أَمْشِي وَأَنْشُبُ فِي أَوْحَالِ ذَا الْبَلَدِ
وَأَنْ فُرْقَتَهُ نَارًا عَلَى كَبْدِي
إِلْبَسَ إِكَافِكَ فِي جَنَحِ الدَّجَى وَعُدِ
عِنْدَ الْحَرَامِيِّ خَصْمِي فَيْكَ مِنْ حَسَدِ

شُلَّتْ يَدَايَ مِنْ بِهِ وَلَّى وَغَادَرَنِي
أَعَالِمُ أَنَّنِي مِنْ بَعْدِهِ جَزَعُ
وَأَنَّ صَوْتَ الْمَنَادِي الْيَوْمَ يَزْعُقُ أَنَّ
لَا يَغْرُرَنَّكَ رَغْدُ أَنْتَ وَاجِدُهُ

فإنما ذا لحين أنت تعلمه
يفديك كل حمارٌ ندّ من بطرٍ
أو حار من شبق قلابُ جفلته
ما دام شهراً على طرف ولا عتد
أو صبح من لغب، أو خار من جهد
كرّاف بول قديم جفّ كالقدد

(كرّاف بول: شم بول الأتان)

مصنّع الرأس ممشوق القوائم لم
أليّة إنه بالطرق أعرف من
يا ليت لي خصلة من ذيله أثراً
يحرن إذا سُمته خسفاً ولم يجد
مولاه أن لم يعقه القيد ذو العقد
أرنو إليها كما يُرنى إلى الخرد

* ومن ديوان الشاعر أحمد عبدالغفور عطار «الهوى والشباب»^(١):

حمار فوق الرؤوس

يا صاح ما الصبر؟ إنَّ الصبر معجزةٌ
فالميت من صبره تُلفيه مضطجعاً
وكيف يشكو فقيد الروح إن عصفت
والحي تلقاه كالبركان مضطرباً
لا يستريح إذا ديست كرامته
أو يستحيل حساماً جُنّ حامله
وإن حمته القوى عن كشف كربته
والشكو دلّ على أنّا غطارفة
والصبر تغزية الواني ومن هانا
وما شكا ألماً أو صاح جردانا
به المصائب أو أدته طغيانا
جمّ النشاط كثير الشكو غضبانا
حتى يذيق الردى من جار أو خانا
أو يستحيل على الحكام نيرانا
فالشكو أو يدع الأكوان آذانا
نأبى الهوان ولولا الشكو ما بانا

(١) الهوى والشباب (ص ٤٥).

أن تطري العجز يا من كنت بركانا
رياً ويغدو العظيم الندب صديانا
والقمر يطوي الليالي السود غرثانا
يختال فيها ويمشي الحر عريانا؟
من كان بالأمس للظلام طعانا؟
إلا رفيع الذرى قد طال بنيانا
مستوحشاً يجزع الآلام غصانا

فكيف تنصحني بالصبر واعجباً
كيف التصبرُ والمأفون متفخُ
كيف التصبر والرعيد في شبع
كيف التصبر والمملوك في حل
كيف التصبر والظليم يحمده
أين الخراب لبیت الظلم لم أره
ومنزل العدل يا ويحي غداً طلاً

* * *

وأصبحوا فوق ظهر النجم رُكبانا
وكل شهم يعاني الذل ألوانا
وحبذا لو غدونا اليوم عميانا
ولا نرى بائع الأوطان دهقاناً
ذل العزيز وموت الحر بهتاناً

إنما لفي زمنٍ ساد اللئام به
والجاء في قولهم والمال في يدهم
آه لَو أَنَا بِلا قلبٍ نعيش به
فلا نحسُّ بآلامٍ ومنقصةٍ
ماذا أقول وقلبي كاد يحطمه

* * *

يسقي عبيد الخنا والبغي ذيفانا
نافى الكمال ولا تسخر بشكوانا
فوق الرؤوس وكلبٍ صار إنساناً؟

يا صاحبي الفذ لا تصبر وكن بطلاً
وجانب الصبر لا ترفع له نُصباً
وثر بكل حمارٍ صار مقعده

وللشاعر الفلسطيني الدكتور شكري محمد سمارة قصيدة بعنوان: «حوار بين شاعر وحمار» حاول فيها أن يدخل بحماره ميدان شعر التفعيلة، ولكن الحمار أبى عليه ذلك، يقول الدكتور شكري:

يا رفيقي يا حمار
 يا صديقي في البراري والديار
 أنا في شوقٍ إليك
 وإلى كل الحمير
 هل صحيحٌ ما يقول الناسُ عنكَ
 أم تُرى قولُهُم زوراً وبهتاناً وإفكاً؟
 هم يقولون لمن يخطئُ متاً: يا حمار
 وإذا سبُّوا وعابوا
 وإذا شاءوا امتهاناً
 أو أرادوا وصف قبحٍ
 أو وباءٍ أو صغار
 رفعوا الصوت وقالوا:
 أنت يا هذا حمار
 هكذا قالوا، وإني
 مثلهم أيضاً أقول
 لكن الظلمُ حرامٌ
 وأنا مثلك مظلومٌ ومسلوبُ الإرادة
 بل فقل: ظلمي زياده
 فأجبنني
 أصحيحٌ ما يقال؟
 أم تُرى محضُ افتعال

وافتراءً وخيال
 وتَجَنُّ صارخاً منا عليكم؟
 طأطأ الرأس الحمار
 ثم قال...
 نحن في دنيا الحمير
 مثل ما قال تعالى ..
 نحن في القرآن زينة
 ولنا في خدمة الإنسان فضلٌ وريادة
 وله منا الإفادة والقياده ..
 نحن والناس جميعاً هل نكون
 غير تنفيذ الإراده؟
 نحن في دنيا الحمير ...
 ليس فينا من غنيٍّ أو فقيرٍ ...
 أو أميرٍ أو حقيرٍ
 أو صغيرٍ أو كبيرٍ ...
 نحن أبناء أتانٍ واحدة
 هكذا كنّا ونبقى
 نأكل العشب ... وبعضاً من شعيرٍ
 وسواءً كان في الدنيا قليلاً
 أو إذا شئت كثيراً
 لم يمت منا حمار .. أو حمارة

من مجاعة
 نحن في دنيا الحمير ..
 لا نبالي بأمرٍ أو إمارة
 نحن في دنيا الحمير
 يستوي الأمران في رأيي ورأي الآخرين
 لا نبالي ...
 كان ربحاً أو خساره
 هل ترى منّا حماراً أو أتاناً
 سلب الإخوة قوتاً
 وتحدها جبارا
 تحت عنوان الحضاره
 مثل ما يفعل أبناء البشر؟
 هل ترى بين الحمير
 من إذا قال كذب؟
 هل ترى فينا شقاقاً أو نفاقاً أو عداً
 هل سمعتم عن حمارٍ سرق المال وقال ...
 هو مالي ...
 طرد الحمير من الأرض وقال ..
 هي أرضي وحلالي ...
 هل عرفتم أن في الدنيا حميراً ..
 قتلت آلاف آلاف البشر

ثمّ راحوا يرقصون
 ويصيحون بصوتٍ مرعبٍ
 فوق أشلاء الضحايا
 أنه يوم الظفر
 أنه اليوم الأغرّ؟
 هل سمعتم عن حمارٍ
 شرب الخمر وولّى
 ثمّ صلّى
 ليقول الناس عنه إنه ناسكٌ عصره؟
 هل نما يوماً إلى دنيا البشر ...
 أن في دنيا الحمير
 جحشةً أغرت حماراً
 ثم أزدّه قتيلاً؟
 أو حماراً قتلته الشهوة العمياء يوماً
 فمضى نحو أتان .. غرّة من قوم جحش
 وأتاها دون حق
 ثم واراها الثرى ظلماً وزوراً؟ ...
 ومضى يبكي حزيناً وكئيها ...
 فإذا ما عرفوه ... قيدوه ...
 ودنا يوم القصاص ...
 سمعوا منه عجيباً وغريباً ...

ملأ الدنيا صراخاً وبكاءً وعويلًا ونحيباً
 أيها الناس ارحموني
 أيها الناس ارحموني؟
 هل سمعتم يا بني الإنسان في دنيا الحمير
 عن حمارٍ جرّع السمّ أباه...؟
 طمعاً في المال كي يغدو غنياً؟
 ومضى يرتاد صالات القمار...
 أو مضى يرتاد أوكار الحشيش
 ويقيم العمر في سوق الدعارة....؟
 هل خبّرتم يا بني الإنسان في دنيا الحمير
 أن جحشاً نقل (الإيدز) إلى دنيا الجحوش
 بلواطٍ أو زنى
 تحت عنوان التجارة....؟
 هل أتاكم أن جحشاً راح يرتاد القمر..
 وارتقى سَمَكَ الفضاء
 وأخوه الجحش يُضربُ
 بسيّاطٍ ويعذبُ....
 في الزنازين الحفيرة
 كالخطيرة
 تحت أسماع وأنظار البشر
 وعلى سمعٍ من الناس جميعاً

يصرع الأطفال رمياً بالرصاص

دون ردع أو عقابٍ أو قصاصٍ

وقوى البغي تلبى

نزغة الشيطان في دنياكم دنيا البشر

هل نما يوماً إليكم

أن في دنيا الحمير

شاهداً بالزور ظلماً وافتراءً

فإذا المجرم يُؤجر

وإذا المظلوم يُسجن وهو مقصوص الجناح

وأخو الغي طليقٌ مطمأنٌ يسلب الناس حقوقاً

معه صكُّ البراءة

معه عدل القضاء

فتأمل

عندما قال الحمار ما سمعتم ...

همَّ أن يأخذ للحقل طريقه

قال: دعني حلَّ عني

قد رأيتُ الويل منك

فأنا بالرغم من كوني حماراً

لم أقل خوفاً سوى نصف الحقيقة

فعقابي مستحقٌّ إن أنا قلت الحقيقة

قلت: يا صاح تمهل

انتظرنى لو دقيقة
 فلقد أيقظت في نفسي شعوراً
 أبت نفسي وعقلي أن يطيقه
 أنت لم تسفك دماً
 وأنا الإنسان أسعى أن أريقه
 قال: فافهم ما ترى
 قفزت تَوّاً إلى عقلي الحقيقة
 أنه يوحى بقولٍ وسليقه
 أنهم معشر أبناء الحمير
 لو أرادوا زجر جحشٍ بدرت منه خطيئة
 سيقولون بصوتٍ واحد:
 لست منّا يا حمار
 لست من دنيا الحمير
 أنت للإنسان أقرب
 أنت إنسانٌ مهذب ...
 قلتُ يا هذا الحمار ..
 ليس كل الناس هذا
 فعلاً منه نهيقٌ وضراط
 ثم قال
 وهو يمشي ..
 دونها أدنى خجل: حسبنا أنا حمير. حسبكم أنتم بشر

* قصيدة الشاعر علي أحمد النعمي في ديوانه «جراح قلب»^(١):

نهاية أتان

في شوال عام ١٤٠٤هـ، وأنا في طريقي إلى نادي جازان الأدبي، تعرضت لحادث صدام بين سيارتي التي أقودها وبين أحد الحمير السائبة المنتشرة على الطرقات مما أدى إلى تعطيل السيارة وإلى إزهاق حياتها.. ولقد حَزَّ في نفسي منظرٌ كهذا ليس هو الأول ولن يكون الأخير.. فما أكثر ما وقع من حوادث، وما أكثر ما ذهب من ضحايا بشرية بسبب الحمير التي تنكّرنا لها وسرحناها سراحاً غير جميلٍ متناسين أن الله هو الذي سخرها لخدمتنا..

وكان الحادث دافعاً للحديث، فكانت هذه القصيدة:

ليس في عالم الحمير الطليق	من وفاء المخلوق للمخلوق
غير (كمّاشة) يطوق فكاً	ها خطانا على امتداد الطريق
غير (غول) يختال طولاً وعرضاً	وبوجهٍ مستبشع وشفيق
إنَّ سيارتي تلقّت مساءً	محنة شارفت بها للحريق
من أتانٍ جار الزمان عليها	ترتجي الغوث حاضراً بالنهاي
من رحيم يشيلها من أساهها	ومعاناتها لظى التزهيق
زهدت في الحياة بين قطيع	راكض، رافس، كثير المروق
يتلوّى جوعاً وهجراً ويفنى	دون حسٍّ .. بلهفةٍ في الخلق
وقفت كالعمود ترنو يميناً	وشمالاً .. كالمجهد المخنوق

(١) جراح قلب (ص ٣٣).

ضيعت (عفوها) الصغير، فضاعت
 صدمتني، صدمتها .. أيُّ فرق
 فهوت جثةً تكاد تنادي
 وبلي نجوت بعد اضطراب
 وتماسكت ذاهلاً .. واعترتني
 وأرتني الأنوار بعد ضياء
 وأرتني ناساً تأسفٌ حولي
 أطلق (العر) و(الأتان) هروباً
 كل فرد من معدم وطيّق
 كل فرد ألقى بها في البراري
 وبوحي من نبض قلبٍ مريضٍ
 ظنّ في (الجمس) و(الجلنت) بديلاً
 عن (أتان) وعن (حمار) أفادا
 أبعدها عنهم، ولم يرحموها
 جمعوها ظلماً إلى كل وإد
 فغدت محنةً وصارت عدواً
 إن نجونا من شرها في نهارٍ

* * *

يا إلهي إن الحمير تلقّت
 ففريقٌ حانٍ عليها .. ولكن
 كم قسى بعضنا اعتباطاً عليها

وأضاعت إليه كل طريقٍ
 بين هذين في سجل الحقوق
 سوف يدري من عتق وزر العقوق
 وتوقفت بعد رعبٍ وضيق
 عبرةً جففت منابع ريق
 مطفآت .. وما بها من بريق
 وأناساً تُطيل في التصفيق
 منهما اليوم في الهواء الطليق
 و(حسين) يقفو خطى (مرزوق)
 دونما رحمة .. كشوب عتيق
 لا يبالي بأخريات الفسوق
 و(التبوتا) بكل نوع أنيق
 ه لحمل الأعباء يسر وضيق
 من مهاوي أخطار دربٍ سحيق
 ورموها عمداً بكل مضيق
 يزرع الرعب عبر كل طريق
 ما نجونا ليلاً من التعويق

ما تلقّت من كارهٍ وصديقٍ
 كم فريقٍ جافٍ لها وفريقٍ!
 بحديدٍ مطور التزويق!

كَلِمًا بَائِرًا بِمَنْطِقٍ (سوقي)
 فِي زَمَانٍ (التكنيك) وَ (التحليق)
 قَدْ تَوَلَّى عَنَا كَعَهْدِ الرِّقِيقِ
 فِي حَيَاةٍ كَثِيرَةٍ التَّشْوِيقِ
 وَجَهَازٌ يُعَدُّ خَيْرَ صَدِيقِ
 لِمُرِيدِهِ .. وَانْتَهَى كُلُّ ضَيْقِ
 قِ وَ (زيت الموبيل) عَنْ (إفليق)
 دَائِرَاتٍ .. تَهْوِي كَلِمَعِ الْبُرُوقِ
 أَنْتَ فِيهِ فَ (البوق) غَيْرِ (النهيق)
 فِي عِتَابٍ - مَعَ النَّدَاءِ - رَقِيقِ
 مِنْ بِلَادِي ذَاتِ الْوَفَاءِ الْعَرِيقِ
 وَكَفَانَا الْحَدِيدِ عِبَاءَ الطَّرِيقِ
 مَا جَفَاهَا أَجْدَادُكُمْ فِي عَقُوقِ
 لِأَبٍ رَاحِمٍ وَجَدُّ رَفِيقِ
 عِنْدَ رَبِّ مَا نَامَ عَنْ مَخْلُوقِ

كَمْ أَنَاسٍ تَاهُوا غِبَاءً وَقَالُوا
 سَوْفَ لَا نَرْكَبُ الْحَمِيرَ لَأَنَّا
 مَا لَنَا وَالْحَمِيرَ... ذَلِكَ عَهْدُ
 لَمْ يَعُدْ ذَكَرَهَا حَبِيبًا إِلَيْنَا
 مَرْكَبٌ فَآخِرُ وَبَيْتٌ جَمِيلٌ
 وَالْمَكَانُ الْبَعِيدُ صَارَ قَرِيبًا
 قَدْ كَفَتْنَا عَنْ (اللجام) التَّعَاشِيهِ
 وَكَفَتْنَا (كَيْعَانَهَا) (عَجَلَاتِ)
 فَلْتَفِقْ أَيُّهَا الْمَرْوُوعُ مِمَّا
 وَلَا مَرَّ سَأَرْفَعُ الصَّوْتَ جَهْرًا
 أَيُّهَا الْقَاطِنُونَ فِي كُلِّ شَبْرِ
 لَا تَقُولُوا: عَهْدُ الْحَمِيرِ تَوَلَّى
 مَا رَمَاهَا آبَاؤُكُمْ ذَاتَ يَوْمٍ
 فَلَمَّا ذَا لَمْ تَرْحَمُوها وَفَاءً
 إِنَّ لِلرَّاحِمِينَ أَجْرًا جَزِيلًا

* * *

صَوْتَهَا مِنْكَرٌ بِنَصِّ حَقِيقِي
 قُلْتُ: يَا أَنْفَسَ الْحَدِيدِ اسْتَفِيقِي
 بِصَبُوحٍ - مِنْ كَأْسِهِ - وَغُبُوقِ
 خَلَقَ .. أَمَّا الْجَفَا فغَيْرُ خَلِيقِ

قَالَ بَعْضُ مِنْهُمْ: صَدَقْتُ، وَلَكِنْ
 وَوُجُودُ الْحَمِيرِ فِي الدَّوْرِ عِبَاءٌ
 مِنْ لَهَاثِ عَلَى الْحَطَامِ رَهِيبٌ
 الْخَلِيقِ الْوَفَاءِ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ الْ-

حماريتي

وحمارٌ لقيته في طريقي
يتحاشى الغبار، يمشي الهوينا
ينقل الخطو في هدوءٍ وذوقٍ
وهو يبكي مصيره بعد عمرٍ
وبخذه عتمةً واختلاجٍ
وعلى وجهه ابتسامة هُزءٍ
قلت: يا صاح، أين تمضي؟ فإني
جمع اليأس بيننا، فلنواصل
قال: مهلاً...!! ما كنت يوماً لألقى
وهو يلقي أخاه بالغدر سراً
آدمي تعني اضطهاداً وظلماً
وهي تعني الضربَ المبرحَ يهوي
وهي تعني العصا تداعب ظهري
وهي تعني الكرباج يُلهب جسمي
والسبابَ المهين يشوي أصولي
وكفى منه ما أثار حماراً
كم حمارٍ قضى من الضرب قهراً
وحمارٍ شكى من السبّ يوماً

وأنا مُثَقِّلٌ بهمي وضيقِي
وعلى سمته بقايا طروقٍ
أرأيت الحمار يمشي بذوقٍ
عاشه ضمن مركزٍ مرموقٍ
يتنزى بكل حزنٍ عميقٍ
من حياةٍ مليئةٍ بالفروقِ
في احتياجٍ إلى اتخاذ رفيقٍ
سيرنا في عواصفٍ وبروقٍ
آدمياً يريدني كصديقٍ
ثم يرثيه بالكلام الرشيقِ
وهي تعني لنا ضياع الحقوقِ
بضلوعي، مستمتعاً بزعيقِي
بلظاها، وتشتهي تمزيقي
نازلاً صاعداً بلا تفريقٍ
وفروعِي، وسنسفيل عروقي
ما أذل الحمير في التطبيقِ
وهو يجري على حوافي الطريقِ
مات بالصفع أو بفقد العليقِ

ذات يوم، وبالغوا في النهيق
 بالميادين والمراح الطليق
 في حوارٍ مطوّل وعميق
 لا يساوي بعوضةً في الحرق
 عند أهل الأنظار والتدقيق
 بفريقٍ من الكلام صفيق
 : ما لجنس الحمير أي حقوق
 كتبوه على صدور الخروق
 إنّ شر البلاء في ذا الوثوق
 لا أبالي بغير حبّ شقيقي
 غير هذا الإنسان رمز العقوق
 كقصيدٍ على ضفاف العقيق
 تاه قيثاره بلحنٍ رقيق
 مُهمَلٍ بين بيته والسوق
 حين ألقى صهيله بنهيق
 بُنيت فوق تلةٍ من فروق
 بشؤوني، وسطوتي في المضيق
 وأنا مربطي من الطابوق
 وشرب الحليب ملء الشدوق
 لم أجذ فيه أيّ غصنٍ وريق
 للبراديع والحلاس الصفيق

وتنادى الحمير من كل صوب
 يتراکضن في انطلاقٍ عجيب
 يتغنون الإنصاف من ظالمهم
 هل يظل الحمار خلقاً حقيراً
 وهو أمرٌ محيرٌ وغريبٌ
 غير أن الإنسان لجلج فيهم
 قال في غلظةٍ ودون اكتراث
 إثر هذا صاغ الحمير احتجاجاً
 لا تثق ما حييت في آدمي
 فامض عني يا صاح، إني حمارٌ
 كلُّ من في الوجود يعرف قدري
 أنا لولاه عشت عمراً سعيداً
 أو كحلّم مورّدٍ في غناءٍ
 أيّ فرقٍ بيني وبين حصانٍ
 يتوارى من عجزه في حياءٍ
 أيّ عدلٍ ترجونه من حياةٍ
 للحصان التكریم رغم نهوضي
 وهو يحظى بمربطٍ من صفاح
 للحصان الشعر والقصب الغض
 وعلوقي قتّ يبیس وتبن
 للحصان السرج الوثير وظهري

وله ذلك اللجام وكم ذا
والخذاء الواقى فلا شوك يخشى
وله ما يشاء في كل حين
قلت: مهلاً، أضربت قلبي حزناً
وبعثت الأشجان في النفس تسري
قلت صدقاً، وإنني لحماز
هجرتة الحياة وانفض عنه
لا للذنب جنيت لكن لأنى
والتزمت الأخلاق والناس
وقديماً قال الحكيم كلاماً
(عش حماراً تعش سعيداً) ولكن؛
نحن عكس التيار سرنا، فضعنا

ذبتُ شوقاً إلى اللجام الأنيق
في حقول مهجورة أو عذوق
بينما للحمير بلع الريق
مثلما النار في ضرام الحريق
سريان النيران في الحاروق
بشري، في حاجة لصديق
سامر الحي قبل هجر البروق
عذت في رحلتي بلوح عتيق
بحميا التليفق والتزويق
حرّت فيه كالبغل في الإبريق
أقسم النحاس أن يكون رفيقي
وأضعنا أشلاءنا في الطريق



السيرة الذاتية

د. محمد العيد الخطراوي

شاعر من المدينة المنورة وعالم وأديب وناقد ومؤرخ ومسرحي، من مواليد بالمدينة المنورة عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م، يحمل ليسانس شريعة وبكالوريوس لغة عربية وآخر في التاريخ، ودكتوراه في الأدب والنقد من الأزهر .

بدأ حياته بالتعليم منذ سنة ١٣٧٥هـ مدرسا فوكيلا بطيبة الثانوية، فمديرا لثانوية قباء بالمدينة، وبعد حصوله على الدكتوراة عمل أستاذا مساعدا بالجامعة الإسلامية ثم وكيلا لعمادة شؤون المكتبات، ثم انتقل إلى كلية التربية - فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة - وتقلد بها عدة مناصب، ونال درجة أستاذ مشارك ثم حقق درجة الأستاذية وأشرف على مجموعة من الرسائل، كما ناقش مجموعة أخرى .

• من الأعضاء البارزين في أسرة الوادي المبارك، وعضو مؤسس لنادي المدينة المنورة الأدبي، وشغل منصب نائب رئيس النادي حتى عام ١٤٢٧هـ وكان رئيسا لتحرير إصدارات جامعة الملك عبد العزيز - العلوم التربوية - بكلية التربية بالمدينة المنورة لثلاث سنوات.

• رئيس اللجنة الثقافية بفرع الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، بالمدينة منذ تأسيسه.

• شارك في مؤتمر الأدباء السعوديين الأول عام ١٣٩٤هـ بملحمة (أجماد الرياض)،

وشارك بالعديد من المحاضرات وفي عدة مؤتمرات وندوات، وشارك في العديد من المحاضرات والأمسيات الشعرية في أكثر الأندية الأدبية والمناسبات الوطنية.

• رئيس تحرير إصدار (الآطام) الأدبية بنادي المدينة المنورة ابتداء من عام ١٤١٩هـ.

• عضو مؤسس لنادي الأنصار الرياضي.

• قدم للتلفزيون منذ إنشائه العديد من البرامج تقديماً وإعداداً، منها: رجال الثقافة - كلمات وأنغام - بين شاعرين - رحلة في كتاب - رحلة في قصيدة - نافذة على الفكر والثقافة (لمدة ثلاث سنوات)، أناشيد للأطفال ومسرحيات قصيرة.

• وللإذاعة: شعراء من أرض عبقر - عقود الجمان - بين شاعرين - رحلة في قصيدة.

• حصل على جائزة أمين مدني في تاريخ الجزيرة العربية عام ١٤١٥هـ. وجائزة الأمير

سلمان بن عبدالعزيز آل سعود التقديرية للرواد في تاريخ الجزيرة العربية عام ١٤٢٨هـ.

• وحصل أيضاً على مجموعة من الدروع التقديرية، منها درع إثنين الأستاذ

عبد المقصود خوجة، ودرع تكريم الشعراء من وزارة الثقافة والإعلام بمناسبة معرض الرياض الدولي للكتاب ١٤٢٨هـ ..

وهكذا شملت مشاركاته: الشريعة والتاريخ والأدب، وتفرعت مشاركاته الأدبية

لتشمل الشعر والمقالة، والمسرحية، وأناشيد الأطفال، والدراسات الأدبية والنقدية.

* مؤلفاته :

١- الرائد في علم الفرائض / دار الفكر دمشق ١٩٦١م ، طبع عشر مرات آخرها عام ١٤٢٩هـ.

٢- شعراء من أرض عبقر (دراسة لمجموعة من الشعراء السعوديين - جزآن) نادي المدينة المنورة الأدبي ١٣٩٩هـ.

٣- شعر الحرب في الجاهلية بين الأوس والخزرج (دراسة) / مؤسسة علوم القرآن بيروت

١٤٠٠هـ.

- ٤- المدينة المنورة في العصر الجاهلي (الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية - دراسة) / مكتبة دار التراث بالمدينة ١٤٠٤هـ.
- ٥- المدينة المنورة في العصر الجاهلي (الحياة الأدبية - دراسة) / مكتبة دار التراث بالمدينة ١٤٠٤هـ.
- ٦- المدينة المنورة في صدر الإسلام (الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية - دراسة) / مكتبة دار التراث بالمدينة ١٤٠٤هـ.
- ٧- المدينة المنورة في صدر الإسلام (الحياة الأدبية - دراسة) / مكتبة دار التراث بالمدينة ١٤٠٤هـ.
- ٨- مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة، والموقع التاريخي الرائد / دار التراث بالمدينة ١٤١١هـ.
- ٩- أدبنا في آثار الدارسين / بالاشتراك / النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٤١٢هـ.
- ١٠- البنات والأمهات والزوجات في المفضليات وأشياء أخرى / نادي المدينة المنورة الأدبي ١٤١٩هـ.
- ١١- أسد بن الفرات ومسرحيات أخرى / الناشر: المؤلف ١٤١٩هـ.
- ١٢- في الأدب السعودي / النادي الأدبي بحائل / ١٤١٩هـ.
- ١٣- آفاق وأنفاق (مجموعة مقالات) / نادي مكة الثقافي والأدبي ١٤٢٢هـ.
- ١٤- متابعات ومبادآت (مجموعة مقالات) / نادي أبها الأدبي ١٤٢٢هـ.
- ١٥- نبات ونبوات (مجموعة مقالات) / الناشر: المؤلف ١٤٢٣هـ.
- ١٦- محمد عالم أفغاني من رواد المقالة والقصة والترجمة بالملكة العربية السعودية نادي جدة الثقافي والأدبي ١٤٢٣هـ.
- ١٧- محمد سعيد دفتردار مؤرخا وأديبا / نادي المدينة الأدبي، ١٤٢٤هـ.
- ١٨- في محاور النص، تطبيقات وتأويلات، ١٤٢٥هـ.
- ١٩- عبد الرحمن عثمان مبدع الشعر ومنجب الشعراء / نادي المدينة الأدبي / ١٤٢٥هـ.
- ٢٠- الصفح بالكلمات (صفحة على قفا مدخن) - الناشر: المؤلف ١٤٢٦هـ.
- ٢١- الأفاشير وأضغاث أخرى من القول (مجموعة مقالات) - الناشر / نادي المدينة الأدبي ١٤٢٧هـ.
- ٢٢- أسرة الوادي المبارك في الميزان - صدر عن مكتبة الملك عبد العزيز ١٤٢٦هـ.
- ٢٣- في الغناء بالفصحى انتهاء للهوية وانتصار للعربية - الناشر: المؤلف / ١٤٢٧هـ.

- ٢٤- الشيب في الشعر العربي القديم (دراسة وتقويم) نشر: نادي القصيم الأدبي/ ١٤٢٨هـ.
 ٢٥- مدخل إلى علم ثلاثيات القرآن الكريم (توصيف وتأصيل) الناشر المؤلف/ ١٤٢٩هـ.
 ٢٦- قراءة في دفاتر بعض الحمير .. وهو هذا الكتاب.

* تحقيقاته :

- ١- الفصول في سيرة الرسول للحافظ ابن كثير (بالاشتراك مع زميل)/ ١٤٠٠هـ.
- ٢- المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية، للحافظ أبي القاسم علي بن بلبان المقدسي (بالاشتراك)/ دار التراث ودار ابن كثير ١٤٠٣هـ.
- ٣- عارف حكمة - حياته ومآثره - وهو (شهبي النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم) لأبي الشاء الألوسي/ دار التراث بالمدينة ١٤٠٣هـ.
- ٤- ديوان محمد أمين الزُّلِّي/ دار التراث ١٤٠٥هـ.
- ٥- ديوان عمر إبراهيم البري/ ١٤٠٦هـ.
- ٦- المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين لنور الدين الزُّرْنُدي/ دار التراث ١٤٠٧هـ.
- ٧- المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي للحافظ السخاوي/ دار التراث ١٤٠٩هـ.
- ٨- المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي للحافظ السيوطي/ ١٤٠٩هـ.
- ٩- ديوان إبراهيم الأسكوبي/ دار التراث بالمدينة ١٤٠٩هـ.
- ١٠- ديوان فتح الله بن النحاس/ دار التراث بالمدينة ١٤١١هـ.
- ١١- عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير للحافظ أبي الفتح محمد بن سيد الناس اليعمري/ بالاشتراك مع زميل/ دار التراث بالمدينة ودار ابن كثير ١٤١٣هـ.

* دواوينه الشعرية :

- ١- أمجاد الرياض (ملحمة شعرية في حياة الملك عبد العزيز)/ شاركت في طباعته دار الملك عبدالعزيز ١٣٩٤هـ.
- ٢- غناء الجرح/ نادي المدينة المنورة الأدبي ١٣٩٧هـ.
- ٣- همسات في أذن الليل/ نادي المدينة المنورة الأدبي ١٣٩٧هـ.

- ٤- حروف من دفتر الأشواق / نادي المدينة المنورة الأدبي ١٤١٠هـ.
- ٥- تفاصيل في خارطة الطقس / نادي المدينة المنورة الأدبي ١٤١١هـ.
- ٦- مرافق الأمل / النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٤١٣هـ.
- ٧- تأويل ما حدث / نادي المدينة المنورة الأدبي ١٤١٨هـ.
- ٨- أسئلة الرحيل / دار البلاد للطباعة والنشر / الناشر: المؤلف ١٤١٩هـ.
- ٩- في دائرة الغبار / نادي جيزان ١٤٢٤هـ.
- ١٠- ثرثرة على ضفاف العقيق (مختارات من شعره) ١٤٢٤هـ.
- ١١- على أعتاب المحبوبة / نادي المدينة الأدبي / ١٤٢٥هـ.
- ١٢- الوجه الآخر للعملة (ديوان شعر) الناشر / المؤلف / ١٤٢٧هـ.



Readings in

THE NOTEBOOKS OF DONKEYS

An Examination of the Depiction of Donkeys in Arab Heritage

By: PhD. Muhammad al-'Eid al-Khatrāwi

هذا الكتاب

رغم أن الله تبارك وتعالى قرّن بين الحمير وبين الخيل والبغال، وامتنّ علينا بخلقها، وبأنها للركوب والزينة ونقل الأحمال، فهي من نعم الله على الإنسان، التي يجب أن يقابلها بالحمد والشكر، فإننا جميعاً لا نذكر اسم الحمير إلا ونردفه بقولنا: (أكرمك الله) وما أشبه ذلك من العبارات التي تعبّر عن الاستحياء، ولا نفعل ذلك مع الخيل مثلاً، فهل المسؤول عن هذه التفرقة بين البهائم الناس المنعم عليهم؟ أم المسؤول عن ذلك سلوكيات الحمير؟! كيفما كان الأمر، فإنني أفترض أن جهوداً كبيرة بُذلت لغرس الكُره في قلوب الناس للحمير، مما سبّب هذا الانفصال بيننا وبينهم، وأدى إلى اتخاذ القرار بإبعادهم عن مواطن أقدامنا، وحتى ساحات ألعابنا، لا أقول هذا دفاعاً عن الحمير، كما أنني لا أكتب الآن منافحةً (عنهم)، أو دعوة إلى الرفقة بها، فإنني مثوور منها موتور، ولكن أفعل ذلك وأقوله طمعاً في تحقيق شيء من العدالة الاجتماعية، ومطالبة بعدم تصدير الحمير الإنسية، والتمكين لها بين الناس!

المؤلف



9 789957 231187



دار الفتح للدراسات والنشر

www.alfathonline.com

تلفاكس ٤٦٤٦١٩٩ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب ١٨٣٤٧٩ عمان ١١١١٨ الأردن
info@alfathonline.com